

بالخدمة وادعوا التواضع وهم قد اسروا التكبر واستدعوا الى انفسهم الجاه بوعظ الملوك وقد ينفعهم ذلك عند المغفلين فيقر بون منهم من حسن ظاهره وتلطف حتى اعتقد خواصهم تعظيمه وان كان ناقصاً في عقله عبداً لشهوته متهاوناً على الرئاسة فان اسكتته الملك قيل قد اسنقل الموعظة وان اطلق اسانه قال بوعظه بين الملايما افسد حال الدولة فالرأي ان لا يهمل الملك امر هذه الطائفة فانهم اعداء الدول وآفات قوية على الملوك

اعلموا انه لا بد لكم من سخطة على بعض انصاركم ونصاحكم واعوانكم ولا بد من رضى يحدث لكم عن بعض اعدائكم المعروفين بالغش لكم فاذا فعلتم ذلك فلا تنقبضوا عن المعروف بالنصيحة ولا تسترسلوا الى المعروف بالغش وقد خلقت عليكم رأيي اذ لم اقدر على تخليف بدني فافضوا حتى بالتمسك بعهدي والسلام على اهل الموافقة ممن يأتي عليه هذا العهد من الامم .

الرومان

عاقبة الجمهورية

كانون الاوتيكي — بينا كان القواد يتنازعون بينهم فيمن يستأثر بالسلطان على العالم الروماني اشتهر رجل بتعلقه بالدستور الجمهوري القديم الذي اخذ يمزق ولما رآه آخذاً في التداعي لم يلبث ان اتفكر وكان كانون هذا هو الملقب بعد بكانون الاوتيكي باسم المدينة التي اتفكر فيها .

كان هذا الرجل من أسرة شريفة من اخلاف كانون وزير الاحصاء الشهير والمدافع عن الاخلاق الرومانية القديمة كتب له ان يكون صاحب ثروة طائلة وهو شاب بعد وكان قد تعلم فلسفة الرواقيين وجرى عليها فانشأ يعيش عيش الزهاد يأكل قليلاً ويشرب قليلاً ولا يتطيب وعود نفسه احتمال الحر والبرد الشديد يسافر ماشياً في كل فصل من فصول السنة حتى مع اصحابه الراكبين خيولهم ولا يلبس الا ثياباً بسيطة رثة وقد وقع له ان خرج بدون حذاء .

ولما أرسل قائداً لاحد الجيوش الى احدي الحروب (بموجب امتياز فنيان الاشراف)

احبه جنده واحترموه اذ رأوه يعيش مثلهم عيشاً بسيطاً ولما وسدت اليه نظارة المالية أعني بالنظر في الحسابات بنفسه على العكس فحين كان قبله من الاشراف يتولون هذه النظارة فانهم كانوا يتركون للكتاب ينظرون في شؤون المالية وحدهم وبذلك اكتشف نزويروا الكتبة وحاكم المرتكبين واشتهر بغيرته وكان لا يتأخر عن جلسة من جلسات مجلس الشيوخ او مجلس الامة فصار يضرب المثل بشرفه واصبح القوم يقولون عن الامر المتعذر « لا يمكن تصديق هذا ولو قاله كاتون »

وكان كاتون يقوم بما يعتقد انه واجب عليه دون ان تأخذه رافة او ناله رهبة . وحاول ان يحكم على مورينا لانه ابتاع اصوات الامة حتى انتخبته قنصلاً فبرأه شيوخ روم وكان اذ ذاك قنصلاً بخطاب سخيفه من فلسفة الرواقيين فقال كاتون : « حقاً ان لنا قنصلاً مضحكاً » واقترح فيصير في مسألة المشتركين في قتل كاتالينا ان يتأخر اعدامهم لانهم رفعوا قضية فاشتد كاتون على قيصر و اشار الى مجلس الشيوخ ان يأمر باعدام الجناة في الحال فلم يسع المجلس الا ان يقرر قتلهم .

ولما اقترح بومبي سن قانون يسمح له بادخال جيشه الى رومية خلافاً لما رسمه الدستور استشاط كاتون غضباً في جلسة مجلس الشيوخ من المحامي متلوس الذي اقترح وضع القانون وصرح بانه ما دام حياً لا يدخل بومبي الى المدينة مسلحاً ولما جاء متلوس الى الساحة في جيش من العبيد المسلحين الموافقة على القانون اخترق كاتون صفوف الجماعة وقعد بالقرب من متلوس ومنعه من قراءة مشروعه فجاء العبيد اذ ذاك صارخين يرمون بالحجارة و يضربون بالعصي فهرب الشعب وبقى كاتون فانقذه مورينا بان جره الى احد المعابد وعاد الشعب فصعد كاتون على المنبر وخطب في سيئات هذا القانون فابى متلوس ان يعرضه وذهب الى آسيا ليحقق بومبي

ولما اتى قيصر وبومبي وكان قيصر قنصلاً اقترح سن قانون فلم يجرأ غير كاتون على قتاله فانزله قيصر من المنبر بواسطة رجال الشرطة وبعث به الى السجن وظل كاتون يتكلم في الطريق وقد تبعه جمهور من اعضاء مجلس الشيوخ فعزم قيصر ان يحل سبيله وللغلاص منه ارسلته الحكومة الى قبرص ليطرده منها الملك بطليموس دون ان يعطوه جيشاً واذ كان هذا الملك انحر لم يبق على كاتون الا ان ينظم قامة بماخلف الملك من الكنوز فأتى الى رومية فيبلغ كبير فاستقبله مجلس الشيوخ احسن استقبال وتقدم للانتخاب قاضياً وكانت القبيلة الاولى وافقت على انتخابه واذ كان بومبي رئيس المجلس لم يردأ من ان يدعي ان السماء ترعد واعلن بانقضاء الجلسة (والرعد طالع شؤم كما عرفت في بعض الفصول السابقة)

وعند ما اقترحوا ان يعطوا قيصر جيشاً تقدم كاتون الى بومبي ولطالما شغل الاول بقتال الثاني وحضه على الحذر من قيصر فبقي بومبي عدواً لهذا . وهذا لم يمنع كاتون عند ما رأى المنافسين في الحكومة يقتتلون في المدينة من معاضدة اقتراح المقترحين ان يعينوا بومبي وحده فنصلاً عند ما اقترب احدهما من صاحبه ولما زحف قيصر على رومية بجيشه نفع كاتون لمجلس الشيوخ ان يلقى الى بومبي بمقابل الحكم باجمعه قائلاً على من عمل الشر ان يتلافاه . ونفع بومبي الى خارج ايطاليا ومنذ ذلك العهد اطلق شعره ولحيته علامة على الحزن وأشار باطالة زمن الحرب وكان يخاف من عاقبة قتال يقتل فيه الرومانيون بعضهم ولما بلغت هزيمة فارسال سافر الى مصر يريد الالتحاق ببومبي ووقف في افرقية حيث كان لاحد اشباع بومبي جيش وتولى الدفاع عن مدينة اونيكيّا

واذ هزم قيصر جيش افرقية اقترح كاتون على الرومانيين النازلين في اونيكيّا ان يحاصروا فابوا فاطلق كاتون جميع اعضاء الشيوخ الذين لجؤا اليه ثم استحم وتعشى مع اصحابه واخذ يخوض في المباحث الفلسفية ولما حان وقت النوم طالع محاورة لافلاطون في خلود النفس والنفس سيفه الذي كان نزعته ابنه عنه مغاضباً فاحضره اليه فجعله على مقربة منه ونام فاستيقظ عند الفجر ثم طعن نفسه في صدره وكان عمره ٤٨ سنة .

فارسال — لم يبق في البلاد بعد وفاة كراسوس غير بومبي وقيصر وكلاهما يودان استئثار السلطة وكان من تقدم بومبي على صاحبه انه كان في رومية مسئولاً على ازمة مجلس الشيوخ وكان مع قيصر جيش غالباً المدرب على الحروب منذ ثمانى سنين قضاهما في الحملات .

فاتخذ بومبي خطة الهجوم واستصدر من مجلس الشيوخ امراً بان يتولى قيصر جيشه ويحجى الى رومية فعقد قيصر اذ ذلك عزمه على اجتياز حدود ولايته (وكان الحد هونهر رويكون) وزحف على رومية . ولم يكن عند بومبي جيش في ايطاليا للدفاع فركن الى الفرار مع اكثر الشيوخ من الشاطئ الآخر من بحر الادرياتيک وكان له عدة شيوخ في اسبانيا واليونان وافرريقية شت قيصر شملهم واحداً بعد الآخر فهزم جيش اسبانيا سنة ٤٨ ثم جيش اليونان في فارسال سنة ٤٨ فجيش افرريقية سنة ٤٦ ولما غلب بومبي في فارسال لجأ الى مصر فقتله ملكها .

حكم قيصر — ولما رجع قيصر الى رومية عهد اليه بالامر لمدة عشر سنين فصار الحاكم المطلق ثم حارب جيوش اشباع بومبي في افرريقية وساد جميع البلاد الخاضعة للرومان واحتفل في رومية بظفره باربعة اعداء الغاليين والمصريين وملك بحر الخزر في آسيا الصغرى

وملك النوميديين حليف البومبيين في افريقية (لم يكن من اللياقة بان يفاخر لتغلبه على جيش روماني) .

فقام مجلس الشيوخ لقيصر بالتشريفات الدينية فاعطاه اولاً كرسياً اعلى من مقاعد القناصل ولقبه بالاول ثم خوله الحق ان يحمل تاجاً من الفار (وكان ذلك من حق الارباب) ومنحه لقب « ابو الوطن » واجتدع احتفالات والعاباً اكراماً له واقام له تمثالاً خطوا فيه الفاظ التعظيم وعهدوا الى الكهنة للاحتفال بعبادة رب يوليوس قيصر . ومن الممكن ان يكون قيصر مضع في لقب ملك ومع هذا دعا نفسه بالامبراطور وقيل بان يليس ثوباً ارجوانياً وان يجلس على عرش من ذهب ويرسم خوذته على النقود .

واحتفظ قيصر بمجلس الشيوخ وجميع المناصب وهو الذي كان يعين المرشحين الذين يقضي على الشعب انتخابهم وهو الذي وضع قائمة بمجلس الشيوخ وكان هلك كثيرون من الشيوخ فابلى عدد الاعضاء الى تسعة ومعتهم من انتخابهم وكثيرون منهم من الغالين ولم يقض في رومية غير خمسة عشر شهراً من حيث المجموع فما اتسع له الوقت ان يقوم بالاصلاحات التي كان ينويها (ما عدا تقويم السنين) ثم قتله ندماءه الذين كانوا يرغبون في اعادة حكومة مجلس الشيوخ (٤٤)

احد الحكماء الثلاثة — اضطر الشعب الروماني وكان يحب قيصر زعيمه قتلته وها بروتوس وكاسيوس ان يهربا ففتحيا الى الشرق حيث جيشا جيشاً عظيماً وفضل الغرب تحت حكم انطونيوس الذي اعتمد على جيش قيصر فحكم رومية حكماً استبدادياً

وكان قيصر تبنى ابن اخته اوكتاف وعمره ثمانى عشرة سنة بوصية اوصى بها فسمي بحسب العادة الرومانية باسم مثليه ودعا نفسه يوليوس قيصر الاوكتافي . فضم الى حزبه جند قيصر وعهد اليه مجلس الشيوخ ان يحارب انطونيوس وبعد ان تغلب عليه اثر الاشتراك معه لافتناس السلطة فاتحداً مع لييدوس ودخلا ثلاثتهم الى رومية واستولوا على الامر استيلاءً مطلقاً مدة خمس سنين تحت اسم الحكماء الثلاثة المعهود اليهم تنظيم المسائل العامة . وشرعوا سيفي نبي خصومهم واعدائهم الخاصة (فامر انطونيوس بضرب عنق شيشرون) (٤٣) ثم ذهبوا الى الشرق لشنت جيوش المتحالفين وبعد ذلك انقسموا المملكة بينهم . ولم يدم الوفاق بينهم طويلاً بل قاتل بعضهم بعضاً في ايطاليا حتى توسط جندهم في الامر واضطروهم الى العودة لما كانوا عليه من الاتفاق ثم جرى تقسيم المملكة من جديد فاصبح انطونيوس ملك الشرق واوكتاف ملك الغرب (٣٩)

حرب الاكتيوم — دام السلم بضع سنين فاخذ انطونيوس بعيش عيش ملك شرقي

مصاحباً لـكلو بطرة ملكة مصر وشغل اوكتاف بقتال ابن بومبي الذي كان تحت امره واسطول
يخرب به شواطئ إيطاليا . وانتهت الحال بهذين الملكين بانقطاع علائقها فنشبت آخر
حرب بينهما وكانت حرباً بين الشرق والغرب تمت بحرب اكتيوم البحرية واسلم اسطول
كلو باطرة انطونيوس صاحبها فلجأ الى مصر وانحروا في اوكتاف وحده صاحب المملكة
المطلق (٢١) وكان قد انتهى امر حكومة مجلس الشيوخ .

تقرير السلطة المطلقة — شكك الناس كلهم من هذه الحروب وكان سكان الولايات
يؤخذون فداءً ويسبي الجنود معاملتهم ويقتلهم تقريباً يضطرون كل فريق من الحكام ان
يخازوا اليه ويعاقبهم الغالب على الفخامهم الى المغلوب . وكان القواد يعدون الجنود بان
يكافئهم باعطائهم اراضي يستغلونها فيطردون منها عامة سكان مدينة ليحل محلهم قدماء
الاجناد . وكان اغنياء الرومان يخاطرون بترؤسهم وحياتهم ومضى غلب حزبهم يصحون
العوبة في يد الغالب يتصرف فيهم بما يشاء . فقد وضع سيلا مثلاً من المذايع المدبرة
(٨١) وبعد اربعين سنة (٤٣) جدد انطونيوس اوكتاف امر القتل بدون محاكمة

ولقد كان شعب رومية نفسه يشكو من سوء هذه الحالة فلا تصل الى رومية الحروب التي
هي مادة غذائه على طريقة مطردة بل كانت تقع في يد قرصان البحر او بنهبها اسطول العدو
فيعد ان مضى قرن على طريقة هذا الحكم لم يعد للجميع من الرومان وسكان الولايات
والاغنياء والفقراء رغبة في غير السلام وعددها تقدم الى ذلك الشعب المنهوك بالقتل
الاهلية وارث قبصر ابن اخته اوكتاف احد الحكام الثلاثة — تقدم اليهم بعد ان تغلب على
رصيفيه قال المؤرخ تاسيت وقبض بيده على جميع سلطات الامة ومجلس الشيوخ والحكام
ولم تمض بضع سنين الا وقد اصبح سيداً على رومية وليس بعد هذا من لقب فلم يعد يفكر
احد في مقاومته وقد اغلق معبد جانوس ونشر في العالم الوية السلام وهذا كان ما يطلبه
العالم باجمعه وذلك لان حكومة الجمهورية بواسطة مجلس الشيوخ لم تكن تمثل غير النهب
والحروب المدنية فكانت النفوس تطمع في رجل يكون من القوة بحيث يحول دون الحروب
والثورات وعلى هذا الوجه أسست الامبراطورية الرومانية .

اغسطس

تنظيم الحكومة الملكية — بقضي نظام الحكم الجديد الذي وضعه وريث قبصر ان
يكون الحكم المطلق بيد رجل واحد يدعى الامبراطور اي الرجل المدير الامر وله الحق ان
يتولى السلطات باسمها التي كانت موزعة بين الحكام القدماء فيرأس مجلس الشيوخ ويجمع
الجيش كلها ويقودها ويضع قائمة بالامراء اعضاء الشيوخ والفرسان والوزنيين ويجبي الضرائب

وهو القاضي الاكبر والمدير الاعظم وله سلطة القضاة . ولييان ان هذه السلطة قد جعلته رجلاً فوق الرجال من البشر لقبوه بلقب ديني وهو اغسطس او اغست ومعناه المحترم لم تنتظم شؤون المملكة بشورة انت على كل اصطلاح قديم ولم يبلغ اسم « جمهورية » وانقضت ثلاثة قرون وعلام الجنود لا يزال يكتب عليها اربعة حروف من اول اربع كلمات S. P. Q. R. ومعناها مجلس الشيوخ والشعب الروماني ولكن اجتمعت السلطة التي كان يتقاسمها اشخاص كثير ون في يد واحد وبدلاً من ان يتولاها سنة فقط اصبح يتولاها طول حياته فالامبراطور هو الحاكم الفرد مدى حياته في الجمهورية وفيه يتجسد الشعب الروماني ولذلك كان مطلق التصرف .

مجلس الشيوخ والشعب — بقي مجلس الشيوخ الروماني على ما كان عليه قديماً مجلس اعيان الاغنياء واكثر الوجوه حرمة في المملكة فكانت عضوية المجلس تعد من الشرف المرغوب فيه فاذا ارادوا ان يقولوا الاسرة القلانية كبيرة يقولون هي امرة شيوخ ولكن مجلس الشيوخ على حرمة لم تعد له سلطة لانه لا يتأق الامبراطور ان يستغني عنه ولم يرح مع هذا اول قوة حاكمة في الحكومة وان لم يكن المسيطر عليها وكان يتظاهر الامبراطور احياناً بأنه يريد اخذ رأيه ولكنه لا يعمل بمشوراته .

فقد الشعب كل سلطة اذ ألغيت مجالسه منذ عهد تiber . واصبح جمهور الامة المزدهم في رومية لا يتألف الا من بضعة الوف من كبار السادة مع عبيدهم ومن خليط من الشحاذين وكانت الحكومة قد تعهدت باطعامهم وزام الامبراطرة يوزعون عليهم الخنطة ويرضخون لهم شيء من النقود فاعطى اغسطس سبعةائة فرنك عن كل رأس تسع مرات واعطى نيرون ٢٥٠ فرنكاً ثلاث مرات عن كل رأس .

ثم ان الحكومة كانت تقيم مشاهد لتسليه هذا العوغاء . وكان عدد المشاهد النظامية ٦٦ يوماً في السنة على عهد الجمهورية فبلغت بعد قرن ونصف على عهد مارك اوريل ١٣٥ يوماً وفي القرن الخامس وصلت الى ١٧٥ يوماً دع عنك الايام الاضافية

وتدوم هذه المشاهد منذ شروق الشمس الى غروبها فيتناول المتفرجون طعامهم سبعة الساحات . وهذا ما كان الامبراطرة يتخذون منه طريقة امينة لاشغال العامة . قال احد الممثلين لاغسطس : لعائدتك ياقيصر يعتني الشعب بنا . بل كانت هذه المشاهد واسطة لاستئالة قلوب الامة للامبراطور فكثيراً ما كان اقيع الامبراطرة اكثرهم حظوة من الشعب فكان نيرون الظالم يعبد لانه قام بالعباط لطيفة فلم يصدق العامة بأنه مات وكان ينظر قدومه بعد ثلاثين سنة من موته .

وما كان العامة في رومية يبحثون عن تولي الامور بل غاية ما نطال اليهم تقوسهم ان يتسلوا او يأكلوا كما قال جوفينال في عبارة له شديدة: « خبز والاعاب الميدان »
التأليه — الامبراطور وحده سيد المملكة ما دام حياً لان الشعب الروماني يتقلى له عن كل سلطة ومعنى مات يبحث مجلس الشيوخ فيما اتاه في حياته ويحاكمه باسم الشعب فاذا حكم عليه تبطل جميع اعماله وتخطم ثيلته ويغى اسمه من المصانع والآثار (١) واذا اقر على اعماله (وهو ما يحدث غالباً) يقرر مجلس الشيوخ بان الامبراطور مات وقد ارتقى الى مصاف الارباب .

وقد غدا معظم الامبراطرة ارباباً بعد موتهم على هذه الصورة فكانت تقام لهم معابد وعهد الى كهن ان يقيم لهم الشعائر الدينية وقد كان في جميع اجزاء المملكة معابد رسمت باسم الرب اغسطس والربة رومية واشتهر عن اشخاص انهم قاموا بوظائف كهن للاله كود وللآلهي قز بازين وهذه العادة في تأليه الامبراطور المتوفى كانت تسمى « التأليه » والكلمة يونانية وانتقلت عاداتها من يونان الشرق على ما يظهر

ادارة الولايات — كان ثلثائة او اربعائة اسرة شريفة في رومية تحكم البلاد وتستتر باقي المعمور منذ الفتح الروماني فجاء الامبراطور بفزع منهم الحكومة ويخضعهم لسلطان ظلمه . حتى اصبح كتاب الرومان يشنون من فقد حريتهم المسلوقة ولم يكن لسكان الولايات ما يأسفون عليه بل ظلوا رعايا ولكن بدلاً من ان يرأسهم عدة مئات من الرؤساء يتناوبون الحكومة على الدوام ويحيثونهم نهمين للغنى اصبح لهم رئيس واحد وهو الامبراطور يهتم بالنظر في امرهم . ولقد اوجز تiber السياسة الامبراطورية بما يأتي « الراعي الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتفع » فمضى زهاء قرنين وقد اكتفى الامبراطرة بجز سكان مملكتهم يسلبون منهم كثيراً من الاموال ولكنهم يحسونهم من العدو الخارجي بل من عياهم انفسهم . وعند ما كان سكان الولايات يشكون من الفظائع ومن سرفات حكامهم كانوا يستعدون الامبراطور فيعديهم . وكان من المعروف عند القوم ان الامبراطور يقبل الشكوى على شباطه وهذا كان يكفي لادخال الرعب على قلوب الولاة الفاسدين وادخال الطمأنينة على رعاياهم الولايات كلها ملك للامبراطور (٢) لانه يمثل الشعب الروماني فهو قائد جميع الجنود وسيد الناس طراً ومالك الاراضي كافة (قال الفقيه كايوس ليس لنا في اراضي الولايات

(١) عثر على كتابات محي منها اسم دوميتسين على هذه الصورة

(٢) ترك اغسطس لمجلس الشيوخ بعض ولايات من اقل ولاياته منزلة ولكن ظل فيها حاكماً مفعكاً مثل ولاياته الخاصة كانه صاحبها

الا التمتع بها والامبراطور وحده مالك لها) واذا كان من المتعذر ان ينصب الامبراطور في كل ولاية عنه الوكلاء الذين يختارهم بنفسه يرسل الى كل ولاية بقضايط (يسمونه مندوب اغسطس لتولي وظيفة القضاء) وهذا المندوب يحكم البلاد ويقود الجيش ويطوف في ولايته لينفذ المصالح المهمة ويبدء الحياة والموت كالامبراطور . ويبحث الامبراطور ايضا بمحافظ لطبي الخراج وادخال المال في صندوق الامبراطور (ويسمونه نائب اغسطس)

فالقضايط والمحافظ يمثلان الامبراطور ويحكان على رعاياه ويقودان جنده ويثبتان ملكيته . ويختارهم الامبراطور ابدآمن الطبقتين الشريفتين في رومية يختار القضايط من مجلس الشيوخ والمحافظين من الفرسان ولهم لاء العمال مراتب للتشريف على نحو ما كان الحكم في رومية القديمة يتدرجون من ولاية الى اخرى ذاهبين من طرف المملكة الى طرفها (١) فمن سورية الى اسبانيا ومن انكترا الى افريقية . واذك لتقرأ في الكتابات المكتوبة على قبور رجال ذاك العهد جميع المناصب التي شغلوها مبنية احسن بيان . وكتابة قبورهم تكفي لبيان تراجمهم وما تولد من اعمالهم

الحياة البلدية - وكان تحت هؤلاء العمال الكبار الذين يمثلون الامبراطور وهم لايسألون عما يفعلون اناس من العامة الخاضعين يديرون شؤون انفسهم بانفسهم وللامبراطور الحق في ان يتدخل في شؤونهم الداخلية الا انه لايسيء في العادة استعمال هذا الحق . فيطلب اليهم فقط ان لايجاروا وان يدفعوا على وتيرة واحدة ما يفرض عليهم من الاموال وان يحاكموا امام محكمة الوالي . وكان في كل ولاية كثير من الحكماء الحكوميين ويسمون اهل المدينة او البلديون ومن هنا جاءت كلمة الحكم البلدي والمجلس البلدي تجري كل مدينة خاضعة للامبراطورية في ترتيباتها على مثال رومية نفسها فيكون لها مجلس الشعب وتنتخب حكماها لسنة ويقسمون الى فرق في كل فرقة عضوان ومجلس الشيوخ مؤلف من كبار ارباب الاملاك والاعنياء وارباب الاسر القديمة وفي الولايات كما في رومية ليس مجلس الامة الا صورة والحكم لمجلس الشيوخ اي للاشراف

من العادة ان يكون مقر الولاية مدينة اي مثل مدينة رومية مضطرة ولها معابدها واقواس نصرها وحماماتها العامة واحواضها ودور تمثيلها وميادين قتالها والعيشة فيها عيشة مضطرة من عيش رومية فتوزع المنطة والدراهم على الفقراء وتولم الولايم العامة وتقام

(١) قال الفيلسوف ابيكيت لا يقدر كبار الرجال ان يتأصلوا في الارض كالثباتات

بل عليهم ان يسبحوا كثيرا لاطاعة اوامر الامبراطور

الحفلات الدينية الكبرى والالعب الدعوية . الا ان رومية تقوم بما يجب لذلك من النفقات تأخذه من مال الولايات اما في الولايات فان الاشراف يقومون بالاتفاق على حكومتهم واعيادها . والخراج الذي يجبي لحساب الامبراطور يحمل كله اليه ولذلك يقضى على اغنياء كل مدينة ان يقوموا بما يقضي من النفقات للاحتفال بالالعب واحماء الخمامات وتبليط الشوارع وبناء الجسور والمجاري والساحات . قاموا بذلك مدة تزيد عن قرنين واتفقوا عن سعة شهدت بذلك المصانع المنبثة في ارض المملكة والوف من المكتوبات على الاحجار

المستعمرات — تقيم رومية في البلاد التي تشك في خضوعها لها جيشاً صغيراً تسكنه فيها فيبني مدينة تكون حصناً حصيناً وتبعث اليه باناس من الوطنيين الرومانيين يكونون جندا وفلاحين في آن واحد ويجزيه الجيش الاراضي المجاورة الى حصص متساوية توزعها عليهم وهذا ما يسمونه مستعمرة

ويبقى المستعمرون وطنيين رومانيين ويخضعون لجميع ما تأمر به رومية . وتختلف المستعمرة الرومانية عن المستعمرة اليونانية — التي كانت كثيراً ما تشق عصا الطاعة حتى انها تحارب آثنته نفسها — بان تكون ابداً ابنة خاضعة لاما فليست المستعمرة الاحامية رومانية مرابطة بين الاعداء . وكانت اكثر هذه المخططات العسكرية في ايطاليا ولكن كان منها في مكان آخر مثل مستعمرة فاربون وليون وآرل فانها كانت مستعمرات رومانية .

جيش التقيم — لم يكن في المدن الداخلية جيش روماني لان سكان المملكة لا يرون الانقراض على الحكومة فلم يكن للمملكة اعداء الا على الحدود وكان الاجانب ابدًا على استعداد من مهاجمتها فالجرمان وراء نهري الرين والپونة ورحالة الصحراء وراء رمال افريقية ووراء الفرات جيوش المملكة الفارسية

ولذا كان من اللازم اللازب اقامة جند يكون على قدم الاستعداد على تلك التقوم المعرضة ابدًا للتهديد . ادرك اغسطس ذلك فانشأ جيشاً دائماً فلم يكن جنود الامبراطورية من اصحاب الاراضي يؤخذون من حقوقهم ليقدموا في الجندية بعض حملات بل كانوا اناسا من الفقراء جعلوا الحرب صناعة لهم فيدخلون الجندية ليقدموا فيها ست عشرة سنة او عشرين سنة وربما جددوا هذه المدة

وعلى هذا كان الامبراطورية في رومية ثلاثون فرقة من الوطنيين اي ١٨٠ الفاطم

توجب العادة الرومانية مساعدون فيبلغ مجموعهم نحو ٤٠٠ ألف رجل على التقريب وكان هذا الجيش قليلا بالنسبة لعظم تلك المملكة

ولكل ولاية على الحدود جيش صغير يعيد في معسكر دائم يشبه قلعة يحيطه الباعة ينزلون بقرىها فلا يعتم المعسكر ان يصبح مدينة وهكذا يعسكر الجند بازاء العدو فيحفظون شجاعتهم ودرتهم . مضت ثلاثة قرون والجند الروماني يدخل في كل حرب زبون مع البرابرة المتوحشين ولا سيما على ضفاف الرين والبطونة في بلاد ندية قاحلة مغطاة بالغابات والمستنقعات . وربما يذل الجند الروماني في هذه الحروب التي لا نتيجة لها من الشجاعة والشهامة اكثر مما يذل قدماء اليونان في فتح العالم

الآداب — لم يكن الرومان بالطبع امة فنون وقد أصبحوا كذلك فيما بعد مقتفين فيها اثر اليونان . فن يونان أخذوا نموذجاً من فاجعائهم وقصصهم الهزلية وملاحمهم وانشيدهم وأشعارهم الفلسفية والعامية والتاريخية . واقتصر بعضهم على ترجمة الاصل اليوناني (كما فعل هوراس في أناسيده) وكلهم اقتبسوا من اليونان افكارهم ومناحيهم ومزجوها عند ما احتذوا مثالها بما عرف فيهم من صفات الصبر والشهامة حتى صارت بعض آثارهم غريبة الغرائب في أسلوبها

وافلق الرومان على ان العهد الذي أزهرت فيه الآداب اللاتينية حقيقة كانت الخمسين سنة التي قضاها اغسطس في الحكومة فهو الوقت الذي نبع فيه فرجيل وهوراس ووفيد وتيبول وبرورس وتيت ليف ولكن عصر اغسطس (كما يسمونه) قد سبقه ولحقه قرون ريتا عادلاء في اخراج التواضع في الجيل الاول (القرن الاول قبل المسيح) ظهر الشاعر الغريب المدهش لوكريس وفيصر رانيو نانز وشيشرون اخطب خطيب وفي الجيل اللاحق كتب سينيكا ولوكين وناسيت وبلين وجوفال ما كتبوا

وبعض هؤلاء المؤلفين العظام فقط من أمة رومانية ومعظمهم ايطاليون وكثيرون من الولايات مثل فرجيل من مانتو وتيت ليف من بادو (في غاليا) وسينيكا اسباني . وكان الفصاحة هي الفن الوطني حقاً في رومية فكان الرومان كالطليان في ايماننا بحجج الكلام عفا . وكان الخطباء يأتون الى ساحات الاجتماع حيث تلتئم مجالس الامة في اواخر عهد الجمهورية يخطبون ويكثرون من الحركات وسط دوي القوم وشيشرون اعظم أولئك الخطباء وهو الوحيد الذي بقيت بعض قطع من خطبه

ولما سقطت الجمهورية انقضت أيام المجالس ففتحت الفصاحة قلعة المادة

اللغة اللاتينية — انتفعت آداب اللغة اللاتينية بفتوحات رومية فنقلها الرومان مع

لغتهم الى رعاياهم المتوحشين في الغرب فتناسى جميع شعوب ايطاليا وغاليا واسبانيا وافر بقية
وضفاف الطونة لغاتهم الخاصة ولعلوا اللغة اللاتينية . ولما لم يكن لهم آداب وطنية خاصة
اقتبسوا آداب حاكمهم فتكلم اهل الامبراطورية اذ ذلك بلغني الشعبين الكبيرين القديين
فظل الشرق يتكلم باليونانية واخذ الغرب باجمعه يتكلم باللغة اللاتينية
لم تكن اللاتينية اللغة الرسمية للوطنيين وكبار الرجال فقط كما هي الانكليزية لهدنا
في الهند بل ان الامة نفسها تتكلم بها ما امكن من الصحة بحيث ان القوم في اوربا اليوم
بعد انقضاء ثمانية عشر قرناً ما يروحوا يشكون الى اليوم بخمس لغات مشتقة من اللاتينية وهي
الإيطالية والاسبانية والبرتغالية والفرنسية والرومانية

وانتشرت الآداب اللاتينية مع اللغة اللاتينية في عامة أنحاء الغرب فما كانت يدرس
سنة القرن الرابع في مدارس بورديو ووتون غير شعراء اللاتين وخطبائهم وغل الاصاغة
والقسيسيون بعد هجوم البرابرة يكتبون باللغة اللاتينية وتقلوا هذه العادة ايضا الى شعوب انكلترا
والمانيا الذين احتفظوا بلغتهم الجرمانية . في اللاتينية كثبت في القرون الوسطى السجلات
والعقود والشرائع والتواريخ والكتب العلمية . وفي الادبار والمدارس لائقاً ولا تسبح ولا
تعتبر غير الكتب اللاتينية وما عدا كتب العبادة لم يعرف غير مؤلفي اللاتين امثال فرجيل
وهوراس وشيسرون وبلين لجون وما كانت النهضة العصرية الاوربية الا عبارة عن احياء
ما فقد من آثار اقلام كتاب اللاتين واصبح التسبح على منوالهم اكثر من ذي قبل . فكما ان
الرومان اتشوا لانقسام آداباً خاصة لتقليدهم اليونان هكذا صار المحدثون من الاوربيين
يلسجون على مثال كتاب اللاتين . وليست شعري هل عاد ذلك بخيرام بشر؟ ومن يجزم ان
يقوه بذلك ؟ فما لاجدال فيه اذا ان لغاتنا الرومانية الاصل هي بنات اللاتينية وان
آدابنا طامحة بالافكار والمنازع الادبية الرومانية وان العالم الغربي بأسره مصبوغ بصبغة
الآداب اللاتينية .

الصناعات - عثر الباحثون بكثرة على نقائيل وصور بارزة رومانية ابقتها الالام من
عهد تلك الحكومة منها ما نقل عن الآثار المصرية ويكاد يكون معظمها تقليداً لها ولكنها
اقل من الاصل لطفاً وذوقاً . ومن اغرب الامنودجات الباقية النقوش البارزة والنصور الذهبية
فالنقوش البارزة كانت تزدان بها المصانع (كالمعابد والعمد واقواس النصر) والقبور
والتواويس تمثل بها احسن تشييل مشاهد حقيقية وحفلات ونذوراً وحر وبأوماتم وكل ما يحيطنا
علماً بالحياة السالفة . وان النقوش البارزة التي جعلت حول اعمدة تراجان ومارك اوريل
لقيمنا كأننا نشاهد مشاهد حر وبها العقيدة بتلك الرسوم لتمثل لك الجنود ثغالب البرابرة

ويحاصرون فلاعهم ويأتون بالأسرى كما تشاهد النذور العامة والامبراطور يخطب شعبه والصور التصفية هي في الأكثر صور الامبراطرة وسائهم واولادهم واذ كثرت قائلهم في اطراف المملكة بأسرها وعثر على كثير منها حتى ان عند جميع المتاحف اليوم مجموعة من الصور التصفية الامبراطورية وهي صور حقيقية وربما كانت شبيهة بأصحابها كل الشبه اذ نرى فيها سباء كل امبراطور واضحة اي وضوح وكثيراً ما تكون بشعة مستكرهة بحيث لم يحاول النقاشون ان يزينوها ويخفوا من سمات المصورين

فلم البناء هو الفن الروماني الحقيقي لانه يقوم بحاجة عملية وفيه ايضاً فلد الرومان اليونان باخذ الاروقة والعمد ولكن كانت لهم طريقة لا يستعملها اليونان وهي العقود (الاقبية) اي فن وضع الاحجار المتخوة تدعم بعضها بعضاً على شكل قوس مربع . فبالعقد تسمى لهم ان ينشوا انبئة اوسع وأكثر ثقلنا من انبئة اليونان

المصانع - البك اهم انواع المصانع الرومانية منها «المعبد» وهو كثيراً ما يشبه المعبد اليوناني وله دهليز متسع ويكون احياناً أكثر سعة تعلوه قبة . ومن هذا النوع معبد البانثيون الذي بني في رومية على عيد اغسطس . ومنها «الكنيسة الكبرى» وهي بناء مستطيل طويل تعلوه سقف وتحيط بها اروقفة وفيها ينصدر الحاكم يحيط به نوابه وفيها يجتمع القبار ليتجادلوا في ثن البضائع فالكنيسة هي «بورصة» ومحكمة مما . وفي الكنائس الكبرى اقيمت بعد ذلك مجلس المسيحيين وثلت الكنائس النصرانية قروناً محتفظة باسماء الكنائس الرومانية واشكالها

ومنها المرازح (المرايح) ذات الدرجات «انقليتر» والملاعب وهي مؤلفة من عدة طبقات واروقة وضعت بعضها فوق بعض تحيط بالملاعب وكل طبقة من هذه الاروقة تعلوه عدة صفوف من الدريجات وذلك مثل الكوليزة في رومية وميادين ارل ونيم . ومنها قوس النصر وهو باب شرف له بعض سعة بحيث يكفي لمرور مركبة منه وهو مزين بعمد ومزخرف بنقوش كثيرة ومن هذا النوع قوس النصر في اورانج . ومنها الجسر وهو يبنى على صف من الحنايا وسط النهر . ومنها المجاري التي تجلب فيها المياه وكثيراً ما تكون على شكل جسر لتمر فوق دار ومن هذا الضرب من المجاري القطعة من الجسر المسماة كارد

وقد كان الامبراطور اغسطس يفاخر انه افنتق في رومية زهاء ثمانين معبداً قال : « لقد وجدت مدينة من القرميد وهاء نذا اترك مدينة من الرخام » وعمل اخلافه كلهم على زخرفة رومية وقد ازدحمت المصانع حوالى الفوروم (الميدان) خاصة واصبح الكابول مع معبده المعروف بمعبد المشتري اشبه شيء بالاكر وبول في آثينة . وسبق ذلك الحلي

ايضاً الشوا عدة ساحات ذات مصانع مثل ساحة فيسبر وساحة اغسطس وساحة نرفنا
رساحة تراجان وهي ازهاهن

استخدم الرومان (١) في ابنتهم الحجارة التي وقعت تحت ايديهم في البلاد يرمفون بها بلاط
متين صنع بالكس والرمل بحيث انت عليه الف وثمانمائة سنة وهو لم يفتت بما اصابه من
الرطوبة . ولا نقرأ في مصانع الرومان تلك البهجة التي نُقِط على المصانع اليونانية بل انها
متسعة متينة راسخة القواعد شأن النخج الروماني . وما زالت ارض البلاد الى يومنا
هذا طائخة باقراض تلك المصانع ولم يرح الباحثون يعثرون حتى في قفار افريقية والدمشقة
آخذة منهم على مصانع رومانية محفوظة سالمة . ولما أريد جلب الماء الى نونس لم يعملوا الا
ان اصالحوا بحرى النهر الذي أنشئ في العهد الروماني .

التجارة - أصبحت رومية اعظم مدينة في العالم (وبذهبون الى انه جاء عليها زمن كان
فيها مليون نسمة) فكانت بالطبع مركز تجارة المملكة . ولقد مضت العصور القديمة والمتاجر
نقل في الماء اي في البحار وفي الانهار اكثر من الطرق التي يقضي ما عجلات ثقيلة لنقل
تلك المتاجر . فكانت المتاجر تنقل الى رومية من طريق البحر خاصة فنقلها السفن الى مرفأ
اوسني عند مصب نهر التيبر ومنها توسق في قوارب تصعد النهر حتى تصل الى سفح جبل
اقتنين وتنزل شحنها في مرفأ رومية . وكانت البضائع الخاصة ببقية ايطاليا تفرغ في مرفأ
بوزول في خليج نابولي ومن هناك يرسلونها في الطرق واذا تيسر لم يرسلونها سفي قوارب
تسير على الشاطيء او تحري صعداً في الانهار تجرها الخيول

وكانت رومية وايطاليا تصرفان اكثر مما لتتجان ف تجارتها خاصة تجارة واردات
وكان تجار من الطليان ينزلون في ام مرفأ العالم يجمعون فيها حاصلات كل بلد ليعتوا
بها الى رومية . وكنت تجد في كل بلد مركزاً للتجارة مثل بلزمة في صقلية وقرطاجنة
في افريقية والاسكندرية في مصر ومن هذه البلاد كانت تجلب الى رومية الحبوب والزيت
والفاكهة والبقول الناشفة ومن المراكز التجارية اثير في آسيا الصغرى واطلاكية في سورية
ومنها كانوا يرسلون الاصواف والافشة والحنطة التي تخرجها البلاد الداخلية . ومن هذه
المراكز اوليا على شاطيء البحر الاسود واليا كانت تأتي حنطة روسيا . ومنها فادش في
اسبانيا كانت ترسل الى رومية فضة المتاجر واوبار سنكيا (في الاندلس) ومن هذه المراكز

(١) لا ينبغي ان يغرب عن الاذهان ان الصناعات الرومانية هي كالأدب الرومانية
لم تنشأ بيد صنّاع من الرومان بل بيد اناس من سكان الولايات ربما كانوا من العيد
ولم يكن ثمة روماني الا الرجل الذي يعملون له اعمالهم

نار بون وارل في غاليا كانا يجلب اليهما في نهر الرون جلود بلاد الغال واخشابها (اما مارسيليا فكانت سقطت منزلتها القديمة ومرسى فريجيوس اصبح ميناء حرية) .
 وكان الرومانيون يجلبون ايضاً بضائع من خارج فبيعت اليهم الشرق بادوات الزينة والرفاهية كالعطور والابازير (الفلفل وجوز الطيب والزنجبيل) والنيلة والعاج والاشجار الكريمة واقشة الصوف والحبر والعبيد السود والحيوانات النادرة (ولا سيما القردة) فكانت تجلب الى الاسكندرية من طريق البحر الاحمر او في النيل وتأتي الى انطاكية من طريق الخليج الفارسي وبادية الشام (مع القوافل) والى اولبيا من طريق بلاد فارس وبحر الخزر وكان الرومان يستخرجون من بلاد الشمال المواد التي لم تهذبها يد الصناعة مثل عنبر البلطيق وقصدير انكلترا وكان يأتي من طريق غاليا الجلود والادب والشمع وشعور النساء والعبيد أغسطس — مات أغسطس ولم يخلفه ورثته مباشرة فخلفه ابن زوجته تيبير وهو الذي تبناه ومضى نصف قرن والامبراطور ايداً رجل من أسرة أغسطس وادرك الرومان منذ ذلك فساد هذه الطريقة

فكان للامبراطور مدة حياته سلطة متناهية لاحد لها فهو الحاكم على هواه في الاشخاص والاحوال يحكم بالقتل ويسادر الاموال ويهلك من يريد اهلا كما يبدون رقيب لا يقف امام ارادته حاجز من نظام ولا قانون . حتى قال المشرعون الرومان : ان لامر الامبراطور قوة القانون . وبذلك عرفت رومية الاستبداد الذي لانهاية له على نحو الاستبداد الذي كان يجري في المدن اليونانية استبداد لم يخصص في سور ضيق من مدينة بل كان عظيماً كالملكية . فكانا كان في يونان ظالمون اهل حشمة ووقار كان في رومية امبراطرة حكاما معتمسون ولكن قل في هؤلاء من لم يستهزم دوار السلطة عند ما يرون انهم بلغوا ارقى رتبة يصل اليها انسان . ومن امبراطرة رومية من لم يستخدما سلطتهم التي لم يسمع بتثلها الا ترسل اسلواهم كالامثال فغضب المثل يتيرون وثقه واكلود خليفة تيبير وسفاته وكاليجولا وجنونه المطبق وتقليده حصانه رتبة قنصل وتطاوله الى ان يبعد كالارباب . فكان الامبراطرة يضطهدون الاشراف خاصة نيجولوم عن كيد المكاييد ويفسظون على الاغتيا ليعادروا أموالهم

وكانت هذه السلطة المتناهية سيئة النظام وهي تتنزل كلها في شخص الامبراطور ومتى هلك يبحث فيها اتان من الاعمال . كان القوم عارفين بان العالم لا يستغني عن سيد ولكن ليس في شريعة ولا عادة ما يستدل به على ماهية ذلك السيد . فكان من حق مجلس الشيوخ وحده ان يعين الامبراطور ولكنه يختار ابدأ بالقوة من اختاره الامبراطور السالف أو رضي عنه الجنود . ولقد عثر حراس القصر الامبراطوري بينا كانوا يبحثون فيه عقيب وفاة الامبراطور كاليجولا

على رجل اختبأ وراء الفرش وهو ترتعد فرائضه فأوأاته من انسيا، كالبحولا فعينه الحرس امبراطوراً وكان هو الامبراطور كلود

الحرس الامبراطوري — كان يحظر زمن الجمهورية على القائد ان يأتي في جيشه الى المدينة فاصبح الامبراطور رئيس الجيوش كلها وله في رومية حرس عسكري مؤلف من نحو عشرة آلاف رجل أقاموا منذ عهد تير في تسكنة حصينة بالقرب من المدينة . ويتنخب هذا الحرس من قدماء الاجتاد وتدر عليه الرواتب الكثيرة وتوالت عليه الاحسانات وبهؤلاء الجنود يعزز الامبراطور فلا يخاف باثقة تصيبه من الثاقبين عليه من أهل رومية . بيد ان الخطر كان يأتي من الحرس نفسه واذ كانت القوة معهم اعتقدوا بانه يحل لهم ان يأتيوا كل شيء وكان زعيمهم أوسع سلطة من الامبراطور

الثورات والحروب — امتشاط أشراف الرومان غضباً مما أتاه نيرون من القضايع وضروب الجنون فغدا سخطهم ببعض الولاة الى الانتفاض وخلع الطاعة فشرع اذ ذاك مجلس الشيوخ بقوة يستند اليها فأعلن بان نيرون عدو عام فلم يسعه الا الهرب ثم الانتحار .

وبعد موته (٦٨) وقع اختيار مجلس الشيوخ على والي اسبانيا المدعو غالباً فعينهوه امبراطوراً ولكن الحرس الامبراطوري لم يره كريماً جواداً فذبحه ونصب مكانه أحد ندماء نيرون واسمه أتوس . ثم ان الجنود المرابطة في تخوم جرمانيا ارادت ان تنصب بنفسها امبراطوراً فدخلت فرق نهر الرين الى ايطاليا فصادفوا الحرس الامبراطوري بالقرب من كريمون فقتلوا منهم مقتلة عظيمة في وقعة شعواء أخذت بطرفي الليل ثم نصبوا الامبراطور الذي اختاره مجلس الشيوخ وهذا القائد فيتليوس

وفي ذاك الحين اتخبط جيش سورية زعيمه فسباسين الذي قاتل فيتليوس وعين مكانه (٦٩) وهكذا نصبت رومية ثلاثة امبراطرة في سنتين وأُنزل الجند ثلاثة امبراطرة عن عروشهم . وفي خلال هذه الحروب نهب جنود جرمانيا مدينة وحرق معبد الكابول . الفلاقيون — نصب فسباسين امبراطوراً فوطد أركان السلم وكان ايطالياً وهو حنيد أحد الفلاحين حافظ على عادات له في الاقتصاد والادخار في عيشه . فأرى القسم الاعظم من مجلس الشيوخ قد تمزق شملهم والأسرات القديمة قد بادت أو هلكت فاستعاض عنها بأسرات ايطالية أو من اهل الولايات ولما تجدد مجلس الشيوخ على هذه الصورة كف عن ابداء العداء للامبراطور فخلع فسباسين أولاً (٧٩) ابنه تيتوس الذي مات للحال ثم ابنه دومنسين (٨١) الذي كان قاسياً غداراً مثل ظئلة اليونان

الانطونيون — اشتهر الحمسة الامبراطرة الآتون وهم نرفاونترا جان وادريان وانطونين

ومارل أوربل (٩٦ - ١٨٠) بالحكمة والحكمة و يدعونهم الانطونيين (وهذا الاسم لا يوافق في الحقيقة الا الآخرين منهم) ولم يكونوا من نسل البيوت القديمة في رومية بل كان تراجان وادريين اسبانيين وولد انطونين في نيم ولم يكونوا أمراء من أسر امبراطورية خالفت لتولي رقاب الناس منذ ولادتها . وقد تولى الحكم اربعة امبراطرة وهم عتيقون فلم يتسن نقل الحكم بالوراثة . وكانت الامبراطور يختار كل مرة من قواده وولائه أقدر رجل يحلفه ويتبناه ويعينه باختيار مجلس الشيوخ له وهكذا لم يبلغ عرش الامبراطورية الا اناس محكون يخلفون آباءهم في مركزهم بدون قال وقيل .

ولقد كان عصر الانطونيين اعداء العصور التي عرفها العالم القديم والحروب تشب بعيدة عن تخوم المملكة ولم يحدث في الداخلية شغب عسكري بتاتاً ولا مظلة ولا أحكام جائرة . فكبح الانطونيون جماح الجند بتدريسيهم على النظام ونظموا المحاكم ومجلس الامبراطورية وهو مؤلف من الفقهاء والمشرعين واستعاضوا عمن حرروهم من العبيد الذين ظالما سخط الرومانيون عليهم على عهد الانتي عشر قيصرأ باناس من الموظفين النظاميين اختاروهم من أشراف الطبقة الثانية (يعني الفرسان) وما عاد الامبراطور ظالما يخدمه جند بل كان حقاً الحاكم الاول في الجمهورية لا يستعمل سلطته الا لما فيه نفع شعبه

حارب الانطونيون حروباً كثيرة ليدفعوا الشعوب الحاربة التي كانت تحاول مهاجمة الامبراطور من ناحيتين . حاربوا في أسفل نهر الطونة الداسيين وهم شعب بربري سكن البلاد الجبلية ذات الغابات التي نسميها الآن ترانسلفانيا كما حاربوا على الفرات حكومة البارثيين العسكرية الكبرى التي كانت جعلت المدائن عاصمتها قرب بابل وكانت مملكتهم تمتد على طول بلاد فارس .

ولقد حمل تراجان على الداسيين عدة حملات واجتاز الطونة ورجع في ثلاثة مواقع واستولى على عاصمة ملك الداسيين (١٠١ - ١٠٢) وتفضل عليهم بالصلح ولما عاود الداسيون الحرب عمد تراجان ان ياتي عليهم فائتاً على نهر الطونة جسراً من حجر وهاجم ولايتهم فضمها الى المملكة الرومانية (١٠٦) وأُنزل فيها طواري، ومستعمرين أنشؤا فيها مدناً وأصبحت ولاية داسيا بلداً رومانية تكلم أهلها باللاتينية وتخلقوا بالاخلاق الرومانية .

ولما انجلت الجيوش الرومانية في اواخر القرن الثالث كانت قد استحكمت اللغة اللاتينية من الداسيين وظلت شائعة في بلادهم خلال القرون الوسطى على الرغم من غارات برابرة الصقالبة . وقد اطلق على الشعب الذي يسكن اليوم السهول في شمالي الدانوب اسم رومية فيدعي الروماني ويتكلم بلغة مشتقة من اللاتينية كلافرنسية والاسبانية

حارب تراجان البارثيين أيضاً فحاز الفرات واستولى على « المدائن » وهي عاصمتهم وتوغل في أحشاء البلاد إلى فارس ودخل إلى سوس وأخذ منها عرش ملوك فارس المعمول من الذهب الأصم . وأنشأ أسطولاً على دجلة ونزل في النهر حتى مصبه وأبحر في خليج فارس واستخلص من البارثيين البلاد الواقعة بين بلاد الفرات ودجلة وجعلها ولايتين رومانيتين بيد أن هاتين الولايتين انتفضتا بعد سفر الجيش الروماني .

أما الانطونيان الأخبران وهما انطونين ومارك أوريل فقد شرفا الامبراطورية بفنائنها وكان كلاهما يعيش ببساطة كما يعيش الأفراد على غناها دون أن يكون لهما ما يشبه قصر أو سراياً وان شعرا بأنه كانت لهما سلطة وسيادة .

ولقد لقب مارك أوريل على العرش بالحكيم وكان يحكم البلاد مدفوغةً بعامل الواجب على غير ارادته ومع أنه كان يؤثر هذا قضى حياته في الحكم وفيادة الجيوش . وانك ترى فيما خطه في تذكرته البيئية من افكاره صورة الفيلسوف الرواقى الصالح الزاهد العازق عن العالم وهو على جانب من اللطف والحلم قال : « أحسن الأساليب في الانتقام من الاشيياء هو أن لا يعمل المرء عملهم والارباب انفسهم يعطون على الاشياء فلك أن تقلدي بالارباب »

ولقد كان مارك أوريل يأخذ برأي مجلس الشيوخ في عامة المسائل ويحضر جلساته بدون انقطاع . ولقد وقف في وجه كثير من الشعوب البربرية الجرمانية يرد غاراتها ويدفع غاراتها تلك القبائل التي اجتازت الطونة على الجليد ودخل إلى شمالي إيطاليا واقتضى له أن يؤلف جيشاً تجند عبيداً وبرابرة (١٧٢) فانسحب الجرمانيون ولكن بينا كان مارك أوريل مشغولاً في سورية بقتال أحد القواد المتتردين نادوا على اعتقادهم وهاجموا الامبراطورية ومات مارك أوريل على ضفاف الطونة (١٨٠)

ولما وقعت الفتوح (بعد تراجان) كانت الامبراطورية تمتد على طول جنوبي أوروبا كلها وعلى طول الشمال من أفريقية والغرب من آسيا ولا يقف في سبيلها الا الحدود الطبيعية من الغرب البحر المحيط ومن الشمال جبال ألبوكسيا ونهر الرين والطونة وفاقاسيا ومن الشرق بوادي الفرات وبلاد العرب ومن الجنوب شلالات النيل والصحراء الكبيرة . فكانت الامبراطورية الرومانية عبارة عن البلاد التي تتألف منها اليوم كل من انكلترا واسبانيا وإيطاليا وفرنسا والبلجيك وسويسرا وبافيرا والنمسا والمجر والبلاد العثمانية في أوروبا ومراكش والجزائر وتونس ومصر وسورية وفلسطين والاندلس أي أنها شغلت مملكة الاسكندر .

السلم الروماني - ابطال الرومان الحروب في داخلية بلادهم باخضاع جميع الشعوب

لسلطانهم . فتوطد السلم الروماني الذي وصفه احد كتاب اليونان بما يأتي: « لكل فرد ان يذهب حيث شاء فالترافيه غاصة بالسفن والجمال أمينة على سالكيها أمن المدن لساكنيها ولم يبق دواعي القوف وقد طرحت الارض سلاحها الحديد القديم ونجحت في ثياب الاعياد . وها انتم أولاء قد حققتم قول هوميروس بان الارض ملك للجميع »

فاصبح الناس في الغرب المرة الاولى في حل من انشاء بيوتهم وزرع حقولهم والاستمتاع باموالهم واوقاتهم دون ان يكونوا كل ساعة عرضة لمهدد يهددهم باستلابها منهم او ان يذبحوا او يقادوا كالاكرى والعبيد . وهذا ما ان قلنا ان قدره قدره اذ قد تمتعنا به كلنا منذ الصغر ولكن الظاهر انه كان يعد من حسنات الامور النادرة عند القدماء

سهلت الرحلة في تلك الامبراطورية المسالمة وأنشأ الرومان طرقا في كل مكان مع معطيات ومواقف وصنعوا مصورات (خرائط) لطرق المملكة وكان كثير من ارباب الصناعات والتجار يرحلون من طرف الى طرف آخر من المملكة . ويرحل علماء البيان والفلسفة في بلاد الامبراطورية ذاهبين من مملكة الى أخرى وهم يلقون المعاصرات .

وكان ينزل في كل ولاية أناس من اهل الولايات القاصية فقد دلت الكتابات على الاسجار انه كان في اسبانيا اساندة ومصورون ونقاشون من اليونان وفي غاليا صياغ وصناع آسبايون

وجميع هؤلاء كانوا ينقلون عاداتهم وصناعاتهم واديانهم ويمزجونها بما يرونه عند الامم التي ينزلون عليها ثم يعتادون بالتدريج على التكلم باللغة الرومانية وما انتج نجر القرن الثالث عشر حتى نعت اللاتينية لغة بلاد الغرب المشتركة كما صبحت اليونانية لغة الشرق منذ قام خلفاء الاسكندر . فنشأت في رومية كما نشأت في الاسكندرية حضارة مشتركة سموها الحضارة الرومانية ولم تكن كذلك الا باسمها ولغتها واجتمعت حضارة العالم القديم في قبضة الامبراطور

الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث

السيفيريون — بدأت الفتن الاهلية بعد عهد الامبراطورة الانطونيون فذبح الحرس الامبراطوري سنة ١٩٣ : الامبراطور برتيناكس ورأوا ان يضعوا المملكة في المزاد فتقدم طالبان يريدان ابتياعها احدهما سوليسين تقدم على ان يعطي كل جندي خمسة آلاف فرنك والثاني ديدبيوس رفع ما يدفعه لكل جندي الى ستة آلاف فرنك فغلبه الحرس الى مجلس الشيوخ وعينهوا امبراطورا ثم لم يستطع القيام بما تعهد به : فندبوه وفي خلال ذلك يبيع بالملك ثلاثة قواد ثلاثة جيوش كبيرة وهما قائد برتانيا وقائد

إيليريا وقائد سورية وسار هؤلاء الثلاثة المتنافسون الى رومية فوصلت فرق إيليريا قبل غيرها فعين مجلس الشيوخ القائد سبتيم سيفير امبراطوراً على رومية فنشبت عندئذ حربان سالت فيهما الدماء انهاراً احدهما لمداقعة جيش سورية والاخرى لمداقعة جيش برتانيا وظلت لسيفير الحكمة النافذة مدة سنتين وهو الذي اوجز سياسته في كلمتين فقال : « ايها الابناء ارضوا الجند واهزؤا بمن بقي »

الفوضى والغارة — مضى قرن ولم يكن قاعدة في الحكومة غير ارادة الجند وكان سيفير الامبراطورية ماخلا جيش الحرس الصغير في رومية عدة جيوش كبيرة على نهر الرين والطونة والشرق واتكثرتا . وكل جيش يود ان يجعل قائده امبراطوراً والمتنافسون يتقاتلون حتى كتبت الغلبة لواحد فحكم بضع سنين ثم قتل (١) واذا اسعده الحظ بنقل السلطة الى ابنه من بعده فالجيش يتقدم على ابنه ذاته وتعود نار الحرب تستعر .

وفي ذاك الحين نشأ امبراطرة غرائب في اطوارهم فكانت ايلاجابال كاهناً سوريا لبس ثياب امرأة وترك امه توالف مجلس شيوخ من النساء (مجلس شجاعت وعجائز) ومهمهم الامبراطور ماكسيان وهو جندي بالعرض وجبار قاس وسفاك كان يأكل على مائقال ٣٠ ليرة من اللحم ويشرب عشرين ليرة من الخمر . وجاء زمن على هذه المملكة والذين يدعون الامبراطورية ثلاثون امبراطوراً انقطع كل منهم الى ناحية من المملكة (٢٧٨-٣٦) وسعى نفسه امبراطوراً فدعي هؤلاء الثلاثون بالثلاثين ظالماً .

وبينا جند البلاد مشغولون بقتال بعضهم بعضاً كان يرى البرابرة ان القنوم خالية من الحامية فيجتازون ارض الامبراطورية ويخربونها . وكان افليم غالباً خصوصاً هو الذي يقاسي الامر من هذه الغارات في القرن الثالث فتجتازها عصابات من الحاربين الجرمان كالامان والفرنك واذ لم يجدوا فيها مدناً حصينة ولا جيوشاً نهبوا المدن وحرقوها واخذوا ماشأوا من اهلها اسرى معهم وذبحوا الباقين . وفرسان السكسون يخربون شواطئ بحر المانش كان هذا القرن الذي انقضى في حروب قرن خرافات فكنت تجد في كل مكان انساناً يعبدون ارباب المشرق مثل الرب ايزيس واوزيريس والربة الكبرى ولكن ميترًا وهو رب فارسي رب عام اكثر من الارباب قاطبة في الامبراطورية . وميترًا الشمس وهي مصورة في المصانع التي انشئت اكراماً لها وهي تصرع ثوراً وقد كتب عليه ما يأتي : « للشمس التي تغلب الرب ميترًا » وقد عثر على مثل هذه الرسوم في جميع اجزاء الامبراطورية . وعبادة الشمس ملتبسة مبهمه فهي احياناً اشبه بالشعائر النصرانية فيكون فيها عماد وولائم

(١) قدروا ان عدد الامبراطرة من القرن الاول الى الثالث ٤٥ مات منهم ٢٩ قتلاً

مقدسة ومسحة وتوبة وشعوع ولاجل ان يقبل المرء في جملة اهل هذه العبادة يجب القيام باعمال من صوم وشحن مخوفة

وقد كان دين ميترا في اواخر القرن الثالث الدين الرسمي في المملكة . ودان الامبراطرة والجنش بهذا الرب القهار ولهذا الرب في كل مكان معابد على شكل مغاور ذات مذابح ونقوش بارزة وكان في رومية ايضا معبد نعيم انشاء الامبراطور اورليان . وكان من اشد الحاجات للماسة في ذاك العهد البقاء مع الارباب على صلح ووثام فاخترعوا حفلات لتزكية النفس فيليس المؤمن ثوبا ابيض مزينا بالذهب ويقعد في اسفل هوة فيطبقونها على رأسه بلوح من الخشب مشقوب ويأتون بشور يقفونه على هذا اللوح فيخره الكاهن فيجري دمه من الثقوب على اثواب المؤمن ووجهه وشعره . وكانوا يعتقدون ان هذا التعمد بالدم يطهر المرء من السيئات كافة ومن يجري له يكون كيوم ولدته أمه في حياة جديدة ويخرج من الحفرة بشع الصورة ولكنه سعيدا مغبوطا .

اختلاط الاديان — اخذت الاديان كلها في هذا القرن الذي تقدم فيه فوز النصرانية على غيرها بالاختلاط فتعبد الشمس تحت اسماء متنوعة (وهي التريية وهليوس وبعل وايلكبال وميترا) وجميع هذه العبادات منسوخة بعضها عن بعض وكثيرا ما يجري على مثال العبادات النصرانية ومن اعظم الامثلة في هذا الاختلاط الديني ما كان يتوفر عليه اسكندر سيفير الامبراطور المحتشم الطيب ذو الذمة فقد كان في قصره مصلى يعبد فيه المحسنين للانسانية وهم ابراهيم واورفيه ويسوع وابولونيوس دي تيان .

ديوكسين — بعد مرور زمن في الحروب الاهلية قام امبراطرة تمكنوا من وضع حد للشغب وكانوا قساة عاملين وجندا ترقوا في درجات الجندي حتى اصبحوا زعماء وقوادا ثم صاروا امبراطرة . وبكاد يكون منشأ معظم اولئك الامبراطرة من ولايات نصف متوحشة كولايات الطونة وايليريا وبعضهم كانوا في طفولتهم رعاة او مزارعين . وكانوا في سداجة اخلاقهم على مثال قدماء قواد الرومان ولما طلبت وفود ملك فارس ان يروا الامبراطور بروبوس رأوه شيخا اصلع يلبس عباءة صوف ويضطجع على الارض ويتناول حمصا وشحم خنزير وكانت هذه سيرة كوربوس دانتوس قبل خمسة قرون

ولقد كان هؤلاء الامبراطرة اشداء على الجند فاحدثوا في الجيش نظاما وفي البلاد امانا ولكنه نشأت بحكم الضرورة ثورة اخرم نيرانها الامبراطور ديوكسين الذي تدرج من الجندي الى تولي مقام الامبراطورية (٢٨٥) ولنازل عن الملك بعد ان نظم شؤون الامبراطورية .

ولم يعد يكفي رجل واحد لتولي شؤون الحكم في تلك البلاد المتسعة والدفاع عنها فالتخذ كل امبراطور له كما اتخذ ديوكسين من انسابه واصحابه اثنين او ثلاثة يوازره وعهد الى كل واحد النظر في جزء من مملكته . وفي العادة انت 'يدعوا باسم « قيصر » ويحدث احيانا ان يتولى امبراطوران متكافئان يدعى كلاهما باسم اغسطس وفي هالك احدهما يخلفه احد القياصرة اما الجيوش فلا تستطيع ان تلتصق ان لتصب امبراطورة .

واتسعت الولايات اي اتساع حتى ادى ذلك بدبوكسين الى تقسيمها فكان عددها ٤٨ ولاية في القرن الثاني فاصبحت زهاء ٩٠ ولاية (وندت غالبا سبع عشرة ولاية بعدان كانت سبعة) وامسى الحرس الامبراطوري سيف رومية خطرا على البلاد فاستعاض الامبراطور ديوكسين عنه بفرقتين سماها فرقتي القصر .

المدينة الرومانية على عهد الامبراطورية

مدينة بومبي — ذكر بلين الفتي في كتاب له قصة ثوران بركان فزوف (سنة ٧٩) الذي هلك فيه خاله بلين القديم . وكان المعلوم ان هذا البركان اخرب مدينتين صغيرتين نزهتين وهما هركولانوم وبومبي ولكن لم يعرف احد موقعهما . واكتشفت في القرن الثامن عشر بالعرض مدينة هركولانوم مغطاة بطبقة من الحم ثم كشفت مدينة بومبي مدفونة تحت طبقة من الرماد وحجر الكلدان . وبديء بالبحث في هركولانوم فغر فيها على تماثيل صغيرة جميلة ومدارج مخطوطة معروفة توصل العلماء الى حل بعضها ولكن حالت صعوبة العمل في الحم فوقف الباحثون عن التوفر على ما كانوا يدؤوا به . وآثروا ان يحثوا في بومبي حيث يسهل نزع الرماد وقد مضى القرن التاسع عشر باجمعه والهم متوفرة على نزع الرماد عن المدينة حتى كادت تظهر بأسرها الآن كما كانت .

ظهرت بومبي للانظار على ما كانت عليه قديما وقد سقطت السقوف من ثقل الرماد وفر السكّان من كثير من البيوت عند وقوع هذا البلاء ثم عادوا يفتشون عن اهم الاعلاق وانفس التنافس . وما رحى الحيطان قائمة ولم تَح منها الاعلانات المكتوبة بالحجرة بل ما زلت ترى فيها الخطوط التي خطها المارة بالفحم وسمت السوارع وبلاطها المحفور بسير المركبات والجميلات . وقد وجدوا ايضا على الرماد ما تركته جثث الذين هلكوا اختناقا من الرسوم وقد توصلوا بان جعلوا جبسا مائعا في تلك الرسوم واخرجوها فكانت قوالب لتلك الاجساد الميتة .

العيشة الرومانية — تصور بومبي للفكر كيف كانت العيشة في مدينة رومانية صغيرة فند كانت هذه المدينة حديثة البناء ذات شوارع مصفوفة مقلوبة الى زوايا قائمة ومبلطة

ببلاط محكم الاجزاء ولما ارسفة الا ان الشارع الاعظم كان معوجاً ولمع من ضيقه ان كان يتعذر على مركبتين ان تلتقيا في وسطه .

ولم يكن للمساكن غير نوافذ صغيرة وقليلة تطل على الشارع بل كانت للغرفة كلها نوافذ من وسط الدور يدخل اليها النور . وبهذا عرفت ان الشوارع كانت محاطة بمحيطان ما عدا الشوارع الرئيسة وعلى طولها صفوف من الحيوانات يستأجرها السوق والباعة . وساحة المدينة متوسطة الحجم تحيط بها المباني والمصانع مثل ديوان مجلس شيوخ المدينة ومعابد صغيرة ومماكم وسوق مسقوف ورواق ذو عمد وفيه كان يجتمع اهل البطالة وفيها داران للتحليل حفر القسم الاعظم من الكبير فيهما في أكمة وهو يسع خمسة آلاف منفرج والصغير يسع ألفاً وخمسمائة . وفيها مشهد ذو درجات على شكل نصف دائرة « انفيثيانر » انقام فيه الالعاب ويتصارع فيه المصارعون . وفيها ثلاثة حمامات عامة (على الاقل) لاصغرها وهو الذي حفظ اكثر من غيره مقصورة الاستحمام واخرى للعمام السخن وثالثة للبارد وصوان (محل الثياب) وليس في الدور غير اخوة ومقاعد وصناديق وسرر وشعدانات وكثير من المصانع اذ لم يكن القدماء يكثر من الاثاث . اما الغرف فصغيرة ويجهلون ولزينة كلها في قاعة الاستقبال الكبرى الا ان مصايغ اغنياء السكان مباطة بالنسبة . والجدران مغشاة بصور جميلة فيها مشاهد اساطير وتزيينات من الكايل وازهار اما الحيوانات فخالها تشعير بضعف التجارة والحيوانات باعة المشروبات اشارات مصورة وقد صورت سيف احداها صورة باخوس (رب الكرمة) يعصر عنقوداً . وكتب على حائوت آخر : « هنا فندق بؤجر غرفة ذات ثلاثة سرر » وقد عثروا في تلك المدينة على مخبز فيه رحيان تداران باليد وعلى معمل لقصر الثياب ودكان حلاق وبيت جراح وادوانة من القلتر (الخماس الاصفر) ومعمل نقش ودباغة .

المشاهد — كان للمشاهد في حياة هذا الشعب العطل من الاعمال في رومية شأن يصعب علينا تصويره فكانت المشاهد كما في يونان عبارة عن العاب اي حفلات دينية وتعاقب المشاهد طول النهار وتعود من الايام التالية مدة اسبوع على الاقل . والمشهد عبارة عن موعد لتواعد اليه الامة الحرة بأسرها وهناك كانت تقام المظاهرات ففي خلال الحروب المدنية سنة ١٩٦ اخذ المتفرجون بلسان واحد يهتفون : السلم . والمشهد (الفرجة) كان يحسب ما تميل اليه النفوس في ذلك الزمن فقد مثل فيه ثلاثة امبراطورة قتل كاليجولا في هيئة حوذي ونبرون ممثلاً وكومود مصارعاً . وللمشاهد ثلاثة اضرب وهي المزرع او المسرح (المرسخ) والملاعب وشكل نصف الدائرة (انفيثيانر)

وكان الممزج على الاسلوب اليوناني والممثلون يمثلون وقد جعلوا اوجها مستعارة على وجوههم يشخصون قصصاً اخذوها من اللغة اليونانية . وقبلما كان الرومان يقدرون مثل هذه الروايات قدرها لانها تملو عن عقولهم وكانوا يؤثرون الروايات المتشككة الجافة المعروفة بالملم ولا سيما « البانتوميم » التي يشخصها الشخص دون ان يتكلم . ويظهر عواطف الانخاص الذين يمثلهم بمحركاته وسكناته . تمتد بين امكنين من جبل اثنتين وبالاتين ساحة للسياق تحيط بها اروقة عليها مراق وادراج . وهذا المكان هو الملعب الاعظم اصبح يسع منذ وسعه نيرون ٢٥٠ الف متفرج . ثم وسع في القرن الرابع حتى صار صالحاً لاجلاس ٢٨٥ الف شخص وهناك كانوا يمثلون الفرجة التي يحيا الشعب الروماني وهي سياق المركبات ذات الاربعة الخيول فالمركة الواحدة تطوف الملعب من اقصى الى اقصى ثلاث مرات وعليها ان تقطع ٢٥ شوطاً في اليوم الواحد . وسائقو المركبات تبع لشركات تزام كل منها الاخرى ويليون لوثامن الالبسة خاصة بشركتهم فكانت الشركات ارباعاً بادي . بدء ثم استخالت ثنتين وهما الزرقاء والخضراء ولكلتيهما شهرة في تاريخ القرد . ولقد اولى القوم في رومية بسباق المركبات كما يولى الناس اليوم بسباق الخيل حتى كان موضوع حديث النساء والاولاد ايضاً كثيراً ما يتعصب الامبراطور لمربي دون آخر في السباق ولتكون من النزاع بين الرقي والخضر مسألة سياسية

انشأ الامبراطور فسبازين على ابواب رومية بناء الكوليزة وهي عبارة ضخمة ذات طيقتين تسع سبعين الف متفرج كانت عبارة عن ملعب مستدير حول ميدان بصطادون فيه ويتقاتلون فاذا ارادوا الصيد يجعلون الميدان غابة يطلقون فيها الوحوش الكاسرة فيجري رجال مسلحون بحراب يصيدونها . وكانوا يتوعون المشهد يجعل الحيوانات الكثيرة في هذا المكان ولا سيما النادر منها كالاسود والقهود والفيلة والديرة والجواميس والكركدن والزرافة والتمور والتاسع . وظهر في الالامب التي احتفل بها الامبراطور يومي ١٧ فيلاً و ٥٠٠ اسد في الميدان وكانت لبعض الامبراطورة دار لغرائب الوحوش . ثم رأى القوم بدلاً من ان يجعلوا الرجال المسلحين امام الحيوانات ان يطلقوا الحيوانات على الرجال وهم عراة مقبضون . وشاعت العادة في جميع مدن الامبراطورية استخدام المحكوم عليهم بالاعدام في هذه التسلية فاقترست الحيوانات ألوفاً من الناس من كل جنس وسن ومنهم كثير من شهداء المسيحيين على مرأى من الحضور .

المصارعون — كان قتال المصارعين (رجال بايديهم السيوف) من اجل المشاهد الوحشية عند الرومانيين فينزل رجال مسلحون الى الميدان يتبارزون حتى يقتل بعضهم بعضاً

وبلغ الحال بالرومانيين على عهد قيصران صاروا يقتلون ٣٢٠ زوجاً من المصارعين في آن واحد وقد قتل اغسطس في حياته كلها عشرة آلاف رجل وقتل تراجان مثل ذلك سيف اربعة اشهر . وكان المغلوب يذبح في الحال الا اذا عفا الشعب عنه

وكثيراً ما ياتون باناس من المحكوم عليهم في ميدان الصراع ولكن المصارعين يكونون في الغالب من العبيد واسرى الحرب . وكل انتصار يجلب الى ميدان الصراع عصابات من البرابرة يقتل بعضهم بعضاً ليشذذ المتفرجون (١) وكان في رومية مصارعون من كل بلد فمنهم الغاليون والجرمان والتراسيون وربما كان منهم الزنوج فيقتلون بأسلحة مختلفة عن اسلحتهم الوطنية عادة . وكان يحب الرومان ان يروا هذه المقاتلات في صور مصفرة .

وكنت ترى بين هؤلاء المقتتلين في الملعب اناساً من المتطوعة الاحرار حدا بهم حبهم للخطر ان يقدموا انفسهم للصراع وقواده القاسية وان يقسموا لزعمائهم بانهم يقدمون ليضربوا بالعصي ويحرقوا بالحديد المحي ويقتلوا ثقيلاً . وقد تجند غير واحد من اعضاء مجلس الشيوخ من هذه العصابات من العبيد والمنشردين بل تجند في زمرتهم الامبراطور كومود ونزل الى الميدان بذاته . ولا نقام هذه الالعب الخطورة في رومية فقط بل في جميع مدن ايطاليا وغاليا وافريقية (اما اليونان فقد استنكفوا من قبول هذه الالعب) واليك صورة كتبت على تمثال اقيم لاحد اعيان بلدة منشورين : « قد اظهر في اربعة ايام احد عشر زوجاً من المصارعين ما يروحوا يقتلون حتى بعد ان سقط نصفهم في الميدان وصاد عشرة دية هائلة ولا شك انكم تذكرونه ايها الوطنيون الاشرف »

وكان الشعب يهوى اهراق الدماء على نحو ما يجري اليوم باسبانيا في سباق الثيران . وبنفي للامبراطور كما بنفي للملك اسبانيا ان يحضر هذه المجازر . ولقد فقد الامبراطور مارك اوريل ثقة العامة في رومية لانه اظهر مللاً من مشاهدة تلك الالعب فكان يقرأ ويتكلم ويقابل الناس بدلاً من ان ينفرج . ولما صحب معه المصارعين ل يستخدمهم في قتال البرابرة الذين هاجموا ايطاليا اوشكت الغوغاء ان تمرد وصرخوا قائلين : « انه يريد ان يسلبنا تسليحتنا ليضطرنا الى التفلسف »

المدارس = لم يخطر للقدماء قط ان يعلموا الاولاد كلهم فليس العبيد وحدهم بل السواد الاعظم من سكان الامبراطورية لم يتعلموا القراءة . على انه لم يكن في المملكة

(١) شكر احد الخطباء الامبراطور قسطنطين في خطاب رسمي القاء لانه قدم جيشاً برمته من البرابرة الاسرى ليتصارع امام الجمهور ولانه استعمل قتل الناس لتسليه الناس . قال وليت شعري اي ظفر اجل من هذا ؟

غير مدارس الاغنياء والوطنيين الرومانيين . وقلما نعرف المدارس التي يتعلم فيها ابنا الوطنيين والاجناد القراءة والكتابة . وقد كانت راتب معلم المدرسة قليلاً جداً وآباء الاولاد هم الذين يؤدون اليه راتبه . وطريقة التعليم عبارة من ضرب الاولاد بمقرعة او بالعصي . وقد امتلأوا في صورة وجدت في مدينة بومبي ولداً يسكه اترابه بينما كان المعلم يضربه بالسوط .

وتعلم الاسرات الغنية اولادها على مؤدب عبد يكون رومياً في الغالب فيعلمهم النحو واللغة اليونانية . والمدارس العامة تقبل الشبان الاغنياء خاصة يرسلهم آباؤهم اليها ليتعلموا فيها الخطابة . والغاة المنابر لم ينزع من الناس ذوقهم في الخطابة ورائهم عليها . وعلى ذلك العهد بدأ المفوهون او الخطباء يكتبون ويعلمون الناس كيفية الاداء فافتتحوا منذ القرن الاول في رومية مدارس يقبلون فيها الفتيان الاغنياء . وكان بعضهم يمين تلاميذه على انشاء المرافعات في موضوعات خيالية في الخطابة وقد حفظ لنا الحليب سنيك عدة من هذه الدروس الخطابية وموضوعها اولاد مخطوفون ولصوص ومتشردون على اساليب مختلفة أسست على الولاة مدارس من هذا الطراز في جميع اقطار المملكة فكان في غالبا مدرسة قديمة في مدينة مارسيليا اليونانية يقصدها الطلاب من ايطاليا . واصبحت مدرسة اوتون منذ زمن اغسطس عامرة اكثر من غيرها بالطلاب وهي التي بقيت عامرة الى آخر ايام الامبراطورية .

ثم أنشئت مدارس من هذا النوع في الشمال منها مدرسة في ريمس واخرى في تريف . وكانت في الجنوب لعدة مدن مدارس من مثل هذه واشهرها هي التي اصبحت مدرسة بورديو بعد ذلك .

تنفق المدن على هذه المدارس فتعين لها الاساتذة وتدفع لهم اجورهم والمقصد الاول منها تعليم ابناء الاسرات الغنية التكلم باللاتينية واليونانية وان يكتبوا فيها ليتقنوا من ان يكونوا موظفين . ويعلم فيها النحو والبيان خاصة . وكان اشهر استاذ في مدرسة اوتون في القرن الرابع الخطيب اومين ارسله الامبراطور قسطنطين وكان مدحه . واعظم رجل في مدرسة بورديو هو اوزون مربي ابن الامبراطور (٢٦٩) ومؤلف عدة مقاطيع شعرية لاتينية متحكمة .

الاشراف — دثرت الاسرات القديمة الغنية في رومية الا قليلاً ولكن قام غيرها من الاسر الحديثة التي اغنتت بالصيرفة والتجارة والتزام الجباية واستثمار الاراضي المفتوحة . وكلما تمكن غني من ارباب الاملاك من ان يعينه الامبراطور حاكماً تشرف أسرته وبذلك شرفت

جميع الأسرار الغنية في إيطاليا والولايات (حتى لم يبق في أواخر القرن الثالث الناس من الفرسان العاديين) وكان كل عظيم من كبراء هؤلاء الملوك يعيش بين عبيده مملوكاً صغيراً لا عمل له الا اتباع الشهوات وداره في رومية اشبه بقصر تنص غرفة التشريفات (الانتريوم) كل صباح يات الناس من الزين (الزبونات) وهم اناس من الوطنيين يختلفون اليه لامور طقسية صباح كل يوم يملكون عليه بالسيادة ويسايرون موكله في الشارع . لان الاصطلاح يطلب ان لا يظهر الغني ابداً امام الجمهور الا ويحيط به جماعة . وقد ضحك هوراس من احد القضاة لمروره بشوارع تيبور في خمسة من العبيد فقط . ولكبراء خارج رومية مصافح بهجة على شواطئ البحر او في الجبال ينتقلون فيها لا عمل لهم والقصر آخذ منهم

ولم تكن واجبات لبيوت هؤلاء الاغنياء من الرومانيين على العكس من بيوتنا الحديثة بل كانت كلها دائرة من داخل اما من الخارج فلم تكن سوى حيطان عارية لا شيء فيها والغرف صغيرة وفرشها قليل وهي مقلدة لا يدخلها الضوء الا من قاعة التشريفات وهي في وسط البيت وفيها نصبت تماثيل الاجداد وفيها يستقبل الزوار ويدخل اليها النور من شق في السقف ووراءها البر يستبد وهي حديقة محاطة بصوف من العمود وعليها تطل غرف الطعام مزينة اغرزة وفيها سرر لجلوس الضيوف ويتناولون فيها الطعام لان ذلك كان من عادة اغنياء الرومان كما كان من عادة اليونان في آسيا . وكثيراً ما يكون بلاط الدار ممولاً بالفسقساء .

الاخلاق - وصف سينيكا في رسائله وجوفنال في اهاجيه الرجال والنساء في عهدهما وصفاً مزيجاً حتى اصبح فساد رومية القياصرة مثلاً سائراً في الغايين . على ان هذا ثاني من دوام اضطرابات القرون الاخيرة للجمهورية مثل بذخ الاغنياء الغليظ وقسوة السادة مع عبيدهم وطيش النساء المزوج يحنون . فلم يأت الشر من طريقة الحكم الامبراطورية بل من الافراط في جمع ثروات العالم اجمع بيد بضعة الوف من الاشراف او اودعياء الشرف وتحريم بضع مئات من الاحرار يعيشون عيشاً سافلاً وملايين من العبيد يظلمون ظملاً هائلاً وكانت الاميرة الكبرى تندثر بسرعة حتى هال الامبراطور اغسطس ما رأى من نقص عدد الرجال الاحرار فسن قوانين لحل الناس على الزواج والعقاب على العزوبة واذ كان تأثير هذه القوانين يحتاج الى زمن لم تنفع اصلاً . ولقد كثرت عدد الاعزاب من الاغنياء حتى غدت مداهنهم من الصناعات الرابحة وذلك ليومي لهم من يدهنون لهم بشيء من المال يأخذونه بعدهم . ومن حسن التدبير ان لا يرزق الغني ولداً فيكون محاطاً بالمراثين والمتقربين . قال احد القصصيين الرومانيين : « ينقسم الناس في هذه المدينة الى طبقتين

منهم من يصطاد ومنهم من يصاد « وقال سينيكا : « ان في حرمان الاولاد زيادة نفوذ المرء » .

الطبقات النازلة — فقد التمييز بين المواطنين الرومانيين والغرباء ومكانته اذ لم يعد في رومية التفاضلات وشمل حق التملك على التدرج سكان الولايات . وجاء زمن على عهد كارا كالا سنة ٢١٣ صدر فيه امر بمنح حق الوطنية لجميع سكان الامبراطورية ولم يشعر بهذا الامر كثيراً لان العمل كان جارياً عليه من قبل بالفعل ويمتاز الرجل امتيازاً خاصاً بثروته التي يملكها ويقسم الناس الى طبقتين : الاغنياء ويدعون اشرف الشرفاء وهم اعضاء مجلس الشيوخ والفرسان واعضاء مجالس الشيوخ في المدن وتختلف منهم طبقة قواد العشرة اما بقية الشعب وهم العامة فيتألف منهم الفقراء المدقعون والدوقة الحقيرون .

فاشرف الاشراف وحدهم يحسبون في المجتمع وهم يقومون بعامة الوظائف المدنية وجميع موظفي الامبراطور من طبقة اعضاء الشيوخ او طبقة الفرسان وجميع حكام المدن من قواد العشرة . ولم تكن امتيازات رسمية ومخال خاصة بهم في دور التمثيل وحضور الحفلات واذ حكم عليهم بالاعدام لا يصابون ولا يلقى بهم للوحوش في المالب لان هذه العقوبات الخزية كانت خاصة بالغنوا والعامة

ولقد عاش الفقراء في هذا المجتمع الارستوكرامي عيشة ضئيلة يعيش فقراء رومية من الصدقات العامة او بالاختلاف الى الاغنياء ومداهنتهم وهذه العيشة كانت ضريباً مستوراً من الشحاذة . ويصبح الفقراء في القرى مستعمرين في اراضي كبار ارباب الاملاك الذين يعاملونهم معاملة تقرب من معاملة العبيد وترى الفقراء في المدن صناعات او مرتزقة ومنزلتهم منزلة المعتق من العبيد . واذما حسنت حال المدينة يكون لهم نصيب فيما يوزعه الحكام من الصدقات ويدخلون بدور اجرة الى مشاهد التمثيل والالعاب والحمامات العمومية وكنت ترى في جميع المدن حمامات حارة مؤلفة من مقاصير للاستحمام ذات احواض تأتيناها الحرارة من موقد جعل تحت الارض . والحمامات في مدينة رومانية كحال الرياضة في المدينة اليونانية هي مكان اجتماع من لا عمل لهم . بل كانت الحمامات في مدن الرومان اعظم من محال الرياضة عند جيرانهم اليونان مئات من المقاصير على اختلاف اجناسها فمن صورة باردة الى فائز الى حارة الى صوان للثياب ومقصورة لذلك البدن بالزيت ومحل للحادثة ومقاصير للرياضة وحدائق يحيط بكل ذلك سور عظيم . وقد شغلت خرائب حمامات كار كالا بالقرب من رومية مساحة عظيمة من الارض .

العبيد - وتأتي تحت طبقة الاحرار الفقراء الطبقة الاخيرة وهي طبقة العبيد الذين هم في بعض البلاد معظم السكان . والسادة من الرومانيين كالشرقيين لعهدنا كانوا يحبون ان يحيط بهم جمهور من العبيد . في البيت الكبير الروماني يعيش مئات من العبيد ينقسمون بحسب الخدم التي يتولونها فمنهم الموكلون بالفرش وتعبد الاواني الفضية والاغلاق والتحف ومنهم حفظة للثياب ومنهم وصائف ووصيفات ومنهم القيمين على المطبخ والحمام ومنهم رئيس المتكلم ومعاونوه ومنهم عبيد الموكب الذي يرافق سيد البيت وسيدته في الشوارع ومنهم حملة الخففة (الحجارة) ومنهم الحوذيون والسواس ومنهم أمناء السر والقراء والنساخ والاطباء والمربون والممثلون والموسيقيون وارباب الصناعات من كل صنف لانهم في كل بيت كبير يطحنون الدقيق ويحكيكون الصوف ويستججون الثياب . ومن هؤلاء العبيد من حبسوا انفسهم في المعامل يصنعون اشياء يبيعها سادتهم ويكون ربحها لهم ومنهم من يؤجرهم اصحابهم الى الخارج على انهم يتأثرون او بحجارة فقد كان لكراسوس خمسمائة عبد من المهندسين . وكل هؤلاء يدعون عبيد المدن .

عبيد الريف - كل ملك (تفنيش) كبير يتوفر على زراعته عصابة من العبيد فهم الحراثون والرعاة والكرامون والبستانيون والصيدون يجعلون شرادهم قراب كل شردمة من عشرة اشخاص . ويلاحظهم ويكيل منهم بعين عليهم . ويرى صاحب الملك ان من دواعي اعجابه ان تخرج ارضه كل شيء فهو لا ينتاع شيئاً وكل حاجياته تبت في ارضه وهذا مما يجعلونه من جملة الثناء على الاغنياء فصاحب الارض يؤوي اليه عدداً عظيماً من عبيد الريف كما يستعملونهم والملك الروماني اشبه بقرية ويسمى مصيفاً (فيلا) وقد بقي اسمها فاطلق عليه اسم مدينة (فيل) منذ القرون الوسطى وهو الملك الروماني القديم مكبراً

معاملة العبيد - يعامل العبيد بحسب اخلاق سيدهم فمن السادة المتورين الذين اشتهروا بالانسانية يشيرون وسينيك وبلين فقد كانوا يطعمون عبيدهم طعاماً جيداً ويحادثونهم وربما اجلسهم معهم على موائدهم ويستمعون ان يكون لهم اسرة وثروة صغيرة . وهناك سادة على العكس من هؤلاء تعاملوا عبيدهم معاملة الحيوانات وعاقبهم اشد العقوبات بل ربما قتلهم لهوى في النفس . والامثلة على ذلك كثيرة . فقد كان فوبيوس بوليون عتيق اغسطس يطعم السور البحري (سمك مريضة) في يركته فكسر له احد عبيده آنية على غير قصد فما هو الا ان القاء في البركة ليكون طعاماً لسمكه

وصف الفيلسوف سينيكا فظائع السادات بهذه العبارة : « اذا سئل أحد العبيد أو غسطس خلال المأدبة أو طرد الذباب منهاوئاً أو رمى مفتاحاً وسمع له صوت نكبات في

الاقتصاص منه وأي كلب فاذا اجاب رافعاً صوته قليلاً ودلت تلايح وجهه على سوء خلق أيمحق لنا ان نصر به بالسياط ؟ وكثيراً ما نبالغ في الضرب ونقطع له عضواً ونقطع سناً « وهكذا رأينا الفيلسوف ابيكتيت وكان عبداً كسر مولاه ساقه . اما انه فلربكن أيضاً على شيء من الشفقة واليک كيف امتدح ادفيد احدى العقائل قال : « مشطوا رأسها امامي مرات ومافط غرزت الابر في ذراع العبد الذي يشطها »

وما كان الرأي العام ليحول دون هذه الفظائع فقد مثل جوفال عقيلة غضبي على أحد عبيدها وهي تقول أصلبوه — وأي جريمة أناعا العبد حتى استحق هذا العذاب ؟ ما انحس ودل العبد من البشر ؟ وسواء أقمراً ادا ام لم يأت فاني أريد عقابه وأمر به وارادني هي الحجة في هذا الباب

اما الشريعة فلم تكن الطف من الاخلاق فكانت في القرون الاول قبل المسيح توجب بان صاحب البيت اذا ذبحان يقتل عبيده كلهم به . ولما أريد إلغاء هذا القانون خطب ترازيا أحد معتبري الفلاسفة في مجلس الشيوخ مطالباً ببقاء هذا القانون .

والعبيد مطبق تحت الارض يدخله النور من نوافذ ضيقة بعيدة بحيث لا يتيسر الوصول اليها فاذا اتوا ما يغضب ساداتهم يسجنونهم فيه بالليل وفي النهار يبعثون بهم ليشغلوا مقيدین بسلاسل من حديد ثقيلة . وكثير منهم من وثمت وجوههم بحديدة حمأة

لم يعرف القدماء المطاحن الميكانيكية بل كانوا يطحنون الحنطة بطاحن باليد يديرها العبيد وكان ذلك من اشق الاعمال يندبون اليها عقوبة لهم في العادة . وكانت المطحنة قديماً مثل محبس (لومان) وقال بلوت « كان يبيك أشتياء العبيد الذين يطعمون البولاننا (سويق من دقيق الذرة) وهناك يرن دوي الاسواط وقعقة السلاسل والاغلال » وبعد ثلاثة قرون أي في القرن الثاني بعد المسيح وصف القصصي ابولييه داخل مطحنة بقوله : « ايها الارباب ما انعم هؤلاء المساكين من البشر فقد اسودت جلودهم وتبرقت من ضرب السياط ولا تستر ابدانهم غير خرق من قيص مدموعة جباههم متعلقة رؤوسهم مقيدة ارجلهم مشوهة ابدانهم من التيران مقروضة جفونهم من الدخان وقد علام غبار الدقيق »

ولم يكن العبيد يكتبون ولذلك لا نعرف ماهو رأيهم انفسهم في معاملة ساداتهم لهم . الا ان المواثي أنفسهم كانوا يشعرون بحقد عبيدهم عليهم . ولما انتهى الى بلين لجون ما اصاب احد ارباب الاملاك من ذبحه في حمام يبد عبيده قال ملاحظاً : « هو ذا الخطر الذي يتهددنا كلنا » . وقال كاتب آخر : « اصبح كثير من الرومان عرضة لحقد عبيدهم أكثر من حقد الظالمين »

الشركات — كان في جميع بلاد الامبراطورية في الشرق اليوناني أكثر من الغرب اللاتيني عدد كبير من الشركات مختلفة الفروب والاشكال . فتمت الشركات لارباب الصناعة الواحدة وشركات للمثليين والمصارعين وشركات اديية وشركات لاجتماع الكبرين على الشراب ولبعض هذه الشركات أعضاء من الرجال الاغنياء مثل جمعيات الجباة وكان اعضاؤها يلتزمون الاموال الاميرية . ومثل جمعيات التجار الذين يتجرون بين ايطاليا وغاليا ولكن معظم تلك الجمعيات كان مؤلفاً من صعايلك القوم .

ولقد طال منع الحكومة الرومانية لهذه الجمعيات والشركات ثم تسامحت بها حتى اذا كان القرن الثالث اخذت قد اليها يد مصادرتها ولكن الحكومة لم تمنع قطع الجمعيات لدفن الموتى وكانت هذه الجمعيات تتألف من اناس مساكين لا يستطيعون ان يقتنوا ارضاً لتكون لهم قبرا فكانوا يشتركون ويدفعون اقساطا للحصول على سرب يكون مشتركا بينهم ليدفنوا فيه امواتهم . فالمغارة او السرب المعد لدفن الموتى هو عبارة عن بناء مقبب وفيه صفوف كثيرة من المقاصير يجعل في كل واحدة منها رفات ميت ويسمونها برج الحمام بسبب شكلها .

وعلى هذا كان اعضاء جمعية الموتى على ثقة من الحصول على مدفن لائق بعد موتهم وفير دائم لم على الدهر وهو ما كانت القدماء يحرمون عليه كل الحرص ويسمون هذه الشركات لا باسما حزن لثلاث تكون شوما بل يسمونها باسماء ارباب ويسمونها شركات الصغار وكان يدخل فيها كثير من العبيد وتعمل جميع الشركات الا قليلا تحت حماية احد الارباب ليجمعيها (مثل جمعيات الاطباء التي اطلقوا عليها اسم اسكولاب) وما كان لكثير من هذه الشركات من غاية الا ان يتعبدوا كلهم جماعة . والحكومة لاندر الارزاق الا على المعابد والكنيسة وبعض الشعائر الرسمية . وجميع الاديان الاخرى كانت منظمه على هيئة جمعيات . ولاهها صندوقهم واكلتهم ومصلاهم ومذبحهم وحفلاتهم . وكانت الكنائس النصرانية اولاً شركات من هذا النوع .

وامم الشركات شركات ارباب الصناعات فكان منها في عامة المدن حتى ان العواصم كان فيها عدة شركات من نوعها واعضاؤها في العادة من ارباب الصناعة الواحدة وتسمى كل شركة باسماء صناعات اعضائها فقد كان في افيز شركة حلحي الصوف وفي جنيف شركة الملاحين وفي ليون شركة عملة البناء . ونقبل كل شركة في اعضائها اناساً من اهل صناعة اخرى . ومن العادة ان يكون لكل شركة عبادة فتعبد رباً ولقيم عيداً للاحتفال به يجهلون فيه علمه (ودامت هذه العادة في القرون الوسطى في شركات الصناعات المسيحية) وهذه

الشركة تقوم بدفن أعضائها متى ماتوا في مدافن لائقة . ولكل شركة مديران يختاران من المعطين ويكونان في العادة وكيلا وامين صندوق ينتخبهما الاعضاء كلهم الا انه لم يكن لها ادنى سلطة على ارباب الصناعة وما كان يكره احد على الدخول معهم

الحقوق الرومانية

دين البيوت — يعبد اعضاء كل امرة باجمعهم اجدادهم ويحتمعون حول مزار واحد فار باجمع واحدة ولم وحدهم ان ينظروا اليها ولا يحق لاحد ان يعبد اجداد أسرة الا اذا كان من فرع اولئك الجدود . ويقام المزار الذي يجعل فيه ارباب البيت في مكان منفرد من الدار لا يقترب منه غريب . والاسرة الرومانية اشبه بكيسة صغيرة لها دينها وعبادتها لا يقبل فيهما احد غير اعضائها ولذلك تختلف كثيراً عن الاسرة الحديثة لان نظامها ديني . الزواج — اخذ الزواج الروماني يصير احتفالاً دينياً فيسلم الاب ابنه المخطوبة الى خارج الدار فتحمل في موكب الى دار زوجها والناس يرددون كلمة مقدسة وهي : « العرس ابتها العروس » حتى اذا جاؤا بها الى دار زوجها يقدمون لها الماء والنار وهناك يقسم الزوجان بحضور ارباب الاسرة قطعة من الخلاء معمولة من الحواري وكانت يشتم الزواج اذ ذاك شركة الخلاء .

وند اخترع الرومان منذ الزمن الاطول غرباً من الزواج يسوغ للطبقة الوسطى فقط وهو اما ان يبيع المخطوبة احد اوليائها واقربائها بحضور شهود من قبل زوجها ويصرح هذا بانه ابتاعها على ان تكون زوجته وهذا زواج البيع واما ان تحب الزوج فتساكن زوجها ومضى قضيا سنة معاً يعتبران متزوجين وهذا الزواج بالعادة

الرومان كاليونان يرون الزواج فرضاً دينياً والدين يأمر بان لا تندر الاسرة . وعند ما يتزوج الروماني يصرح بانه اتخذ زوجته ليكون له منها اولاد . وقد طلق احد اشراف الاغنياء زوجته وكان يحبها حباً جماً لانه لم يرزق منها اولاداً .

المرأة — ليست المرأة الرومانية حرة اصلاً فهي في شبيبتها ملك ابينا يختار لها زوجاً واذا تزوجت يصير امرها بيد بعاليها ويقول الفقهاء انها في يده وانها مثل ابنته . وبالجمله فللمرأة سيد على الدوام بيده موتها وحياتها .

ومع هذا لم يعاملوا المرأة قط معاملة الرقيق بل هي مساوية في المكانة لزوجها ويدعونها أم الاسرة كما يدعون الرجل أبا الاسرة فهي سيدة في البيت كزوجها تسطر على الداء الرقيقات فتكفهن بجميع الاعمال الشاقة كطحن الحب وخبز الخبز وعجنه . وتجلس في قاعة التشريفات من الدار لتسبح وتحبك وتوزع الاعمال بين الاماء وتلاحظ الاولاد وتدين

شؤون البيت . وايست المرأة الرومانية كالرأة اليونانية بيده عن الرجال بل لتناول الطعام على المائدة مع زوجها وتستقبل الزائرين وتذهب لتناول الطعام في المدينة وتظهر امام الناس في الحفلات وفي دور التثليل وامام المحكمة . الا انها في العادة تكون جاهلة امية وذلك لان الرومانيين لا يهتمون بتعليم بناتهم . واهم صفة يعتبرونها في المرأة ان تكون زاهدة فاذا ماتت يكتبون على قبرها اشارة الى مدحها : « انها التزمت بيتها ولم تخرج منه وغزلت الصوف » الاولاد — الولد الروماني لايه بثابة ملك له وللوالد الحق في ان يعرضه في الشارع فاذا اخذه يريه في بيته اولاً والبنات يبقين في البيت ريثا يتزوجن ومن يغزلن ويحكن تحت ملاحظة امهاتهن والبنون يعملون في الحقول مع آباءهم ويتقنون على استعمال السلاح ليس الرومان شعباً مقلداً في الصناعات وغاية امانتهم ان يعرف ابنواهم القراءة والكتابة والحساب وهم لا يطلبون على ذلك مزيداً فلا يعلمونهم الموسيقى ولا الشعر وبلقونهم الفناعة والصمت والحشمة في ما تهم والطاعة في منازلهم .

ابو العائلة — ان من يطلق عليه اسم سيد البيت بدعوه الرومان ابا الاسرة . فابو الاسرة مالك للاملاك وكاهن في عبادة الاجداد وسلطان الاسرة فهو الحاكم التحكم في بيته يحق له ان يطلق زوجته ويعطد ابنائه وان يبيعهم ويزوجهم بدون ان يأخذ رأيهم . ويحق له ان يستأثر بما يملكونه لنفسه بل وكل ما تحمله اليه زوجته وكل ما يكسبه اولاده . اذ لا يوغ المرأة ولا لاولادها ان يملكو شيئاً وبالجملة فييده حياتهم ومماتهم اي انه قاضيهم الوحيد . ان ارتكبوا جريمة قرب الاسرة يحكم عليهم لا الحاكم .

اصدر مجلس الشيوخ (١٨٦) الروماني امره ذات يوم باعدام جميع من اشتركوا في الاحتفال بعبادة باخوس فنفذ الحكم على الرجال . اما النساء اللاتي اشتركن في الحفلة مع المجرمين فعمد المجلس الى آباء الاسرات في امرهن وهم الذين اعدموا نساءهم وبناتهم . كان الشيخ كاتون يقول « ان الزوج قاضي امرأته له ان يعمل بها ما يشاء فاذا ارتكبت غلطاً يعاقبها واذا تناولت خمرأ يحكم عليها بالاعدام واذا خانت يقتلها » ولما كان كاتالينا بكيد المكاييد لمجلس الشيوخ لاحظ احداهم ان ابنه اشترك في المكيدة فاوقفه وحاكمه فحكم عليه بالموت . وتدوم سلطة ابي الاسرة بدوام حياته والاين لا يخلص من عبوديته له حتى انه اذا اصبح فناناً يظل خاضعاً لسلطة ابيه . ومتى مات الاب يصح الاولاد اسحاب بيوت اما امراته فلا تكون حرة اصلاً بل تكون تحت سيطرة وريث زوجها بل تخضع لابنها نفسه المثلث — كانت الثروة في القرون الاولى لرومية عبارة عن ماشية وعبيد خصوصاً والنفذ الذي دل بعد على الدراهم معناه قطع ويسمى المالك رب الاسرة . ومن المحتمل

ان الارض لم تكن تنتقل بالارث لان لفظة ارث عندهم تدل على ارض مساحتها فدانان وهو المكان الذي يكفي لانشاء بيت وحديقة . ولم يلبث الرومانيون ان قبلوا عادة اعتبار المالك لحقل صاحباً له وعندئذ وضع حق التملك للأشياء والعبيد والاراضي والبيوت وكانوا يعرفونه بأنه حق الانتفاع والتغريب (الاستعمال وسوء الاستعمال)

ثم صار لهذا الحق ان يتناول كل شيء من الحاجات والاثاث والدرهم والعقود والديون وحقوق الاستمتاع . ويجب على من اراد ان يملك شيئاً ان يملكه على الصورة التي عينتها العادة . واليك مثلاً كيف تجري صفقة المبيع : يضع البائع امام خمسة من الوطنيين ينوبون عن مجمع ومعهم سادس يمثل الميزان يديه قطعة من النحاس في هذا الميزان تعادل ثمن المبيع . فاذا كان هذا حيواناً او عبداً يمسكه البائع بيده ويقول : هذا لي بموجب القانون الروماني اتبعته بهذا النحاس الموزون وزناً حسناً .

ثم ابتدعوا طرقاً اسهل لنقل الملك من يد الى يد فصاروا يكتبون بدفع المبيع الى المشتاع . وهذه الطرق لا تملك تملكاً رسمياً بل يكون المقتني للملك متمتعاً به ولكن هذا التمتع يحوله نفس الحقوق كما لو كان ملكاً رسمياً له .

ولصاحب الملك الحق في ان يعطي املاكه بعده لمن يشاء واذا لم يوص بشيء من هذا القبيل يقسم اولاده ثروته واذا اراد ان يغير نظام الوراثة يكتب وصيته . وكان يجري ذلك بمجلس امام مجلس الامة زمناً طويلاً ثم اصطلحوا على صورة متكلفة في البيع كأن يبيع المالك ماله لمن يريد ان يجعله ورثاً له وانتهت الحال بان اصبحوا يكتبون بوصية مسطورة وكان يحق لصاحب الملك خلال القرون الاولى ان يوصي لمن يشاء وان لا يترك شيئاً لاولاده ثم اكره القضاء آباء الاسر بالتدريج على ان يوصوا لكل واحد من اولادهم بقسم من ثروته فاخذ ينال كل ولد قسماً من الارث .

الواح الوصايا الاثنتا عشرة = لم يكن عند الرومان في مبداء امرهم كسائر الشعوب القديمة شرائع مكتوبة بل كانوا يجرون على عادات الاجداد اي ان كل جيل يجري في كل شأن من شؤونه كما جرى الجيل السالف . وقد سن حوالي سنة ٤٥٠ عشرة حكام منتخبين شرائع كتبوها في اثنتي عشرة لوحة من الحجر . وكانت هذه شريعة الاثنتي عشرة لوحة أنشئت احكاماً موجزة شديدة قطعية وما هي الا ثنتين جاف فاس مثل الشعب النصف البربري الذي وضع له . فموجب هذه الشريعة يعاقب الساحر اذا تلا كلمات سحرية ومزعج على حقله بغلة جاره . واليك حكم هذا القانون في المدين الذي لم يؤد ما عليه من دين : « اذا لم يدفع برفع امره الى القضاء واذا عافه المرض او السن عن الحضور يركب حصاناً او

صحفة ويحمل ثلاثين يوماً فإذا لم يوف ما عليه يربطه الدائن بسور او سلاسل وزنها ١٥
ليرة وبعد ستين يوماً يبيعه فيها وراء نهر التير والدائنين اذا تعددوا ان يقطعوا المدين ارباً
ارباً ولا عين اذا قطعوا منه قليلاً او كثيراً قال شيشرون كانت شريعة الاثنتي عشرة
لوحة منبع التقنين الروماني بأسره وكان الاولاد في المدارس يستظفرونها بعد اربعة قرون
من وضعها .

الاشارات في الدعاوي - لا يكفي بموجب هذا القانون الروماني القديم اتفاق الاشخاص
في مائل البيع والشراء والارث فلا يكفي لاجل اخذ حكم المحكمة الرومانية ان يعرض
الانسان قضية بل يجب عليه ان يلفظ عدة كلمات ويقوم ببعض اشارات تقضي بها العادة
وكل قضية تقام امام المحكمة يجري تشليلها بالاشارات . فللمطالبة بشيء بمسكه المدعي يده
وللاحتجاج على جار رفع حائطه على جاره يرمون بحجر على هذا الحائط . وهاك ما يجري اذا
اختلف اثنان في ملكية حقل . يأخذ الخصمان بايديهما كأنهما يريدان ان يتضاربا ثم
يفترقان ويقول كل منهما : « اصرح بان هذا الحقل لي بموجب حقوق الرومانيين فانا
ادعوك باسم محكمة القاضي الى مكان الحقل ليفصل فيه بيننا » فيأمرها القاضي ان يذهب
الى الحقل قائلاً لها : اذهبا فهذا طريقكما امام الشهود الحاضرين . فيخطو الخصمان بضع
خطوات كأنهما ذهبا وفي ذلك رمز الى ذهابهما . فيقول لها احد الشهود : ارجعا .
وبذلك اشارة الى انها ذهبا الى الحقل فيقدم كل من الخصمين مدرة من التراب وهي
اشارة للحقل . وهكذا تبدأ الدعوى وعندئذ يستمع القاضي للخصامين . والرومانيون
كسائر الشعوب القديمة لا يحسنون فهم غير ما يقع تحت انظارهم فيالمدائيات يتشبهون الحق
الذي لا يرى .

وافقد كان الرومان يحترمون هذه الاشكال القديمة من الاحكام من وراة الغاية فكانوا
في القضاء كما هم في الدين يطيعون نص القانون دون ان يهتموا بالبحث عن معناه
وعندهم ان كل دستور مقدس يجب المبالغة في تنفيذه ومن الحكم الجارية في قضاياهم ان
كل ما يقوه به اللسان يكون حقاً . فاذا غلط صاحب الدعوى في ايراد مدعاه ينحسر قضيته
واذا اقام رجل قضيته على جاره لانه قطع له كرمه يجب ان تكون الصورة التي يوردها
امام المحكمة حاوية لكلمة « شجرة » فاذا استعاض عنها بكلمة « كرم » لا يحكم له .

واحترام هذه المراسم على اطلاقها فتح للرومانيين سبيل الوفاق الغريب في أمور كثيرة
فالشريعة تقول ان الاب اذا اباع ابنه ثلاث مرات يبرر الولد من سلطة ابيه ومتى اراد
روماني تحرير ابنه يبيعه ثلاث مرات متوالية وهذا العمل المضحك في بيعه يكفي لتعريده .

وكانت الشريعة تقضي قبل البداءة بحرب ان يرسل مناد ينادي بها على تخوم العدو . ولما أرادت رومية اعلان الحرب على بيروس ملك ابيز الذي كانت تملكته في عبر الادرياتيك رأت الحكومة الرومانية للقيام بهذه المصطلحات ان يتنازع احد رعايا بيروس . وربما كان من الآبقين من الجندي حقلًا من رومية فاومعوا بان هذا الحقل اصبح ارضًا من بلاد ابيز وراح المنادي يلقي فيها حربة ويدعو فيها للحرب علنًا . وكان الرومانيون مثل جميع الامم الغتية يعتقدون باطلاً ان للراسيم المقدسة فضيلة سحرية

الفقه — كانت شريعة الاثنتي عشرة لوحة والشرائع التي وضعت بعد موجزة ناقصة فكانت تعرض مسائل كثيرة لاحل لها في قانون من القوانين الموضوعة . ففي مثل هذه الاحوال الصعبة كانت العادة متبعة ان يعتمد الى الاخذ برأي بعض اشخاص اشتهروا بمعرفتهم في مسائل الحقوق . وكانوا من اهل الاعتبار ومنهم قناصل قدماء او احبار فيكتبون آراءهم كتابة وتسمى فتاويهم اجوبة العقلاء . ومن العادة ان يكون لهذه الاجوبة شأن وفيمة لان اصحابها الحكماء على جانب من الاعتبار والحرمة . وقد زاد الامبراطور اغسطس بان عين بعض هؤلاء الحكماء وقرر ان تكون اجوبتهم قانونًا يعمل به . وعلى هذا صار الحقوق علمًا وعلماء الحقوق او الفقهاء المشرعون يضعون القواعد الجديدة التي أصبحت سارية فنشأ بذلك علم الفقه

أمر القاضي — دعت الحال في رومية الى نصب حاكم اعلى لينفذ قواعد الحقوق المقدسة وللقنصل أو القاضي فقط ان يدير شؤون محكمة او يحقق الحقوق . واذا كان التنصل يعنون بقيادة الجيوش فهم يعهدون في العادة بالنظر في الحقوق الى القضاة . وكان في رومية قاضيان حاكمان على الاقل يفصل احدهما في المسائل التي تحدث بين الوطنيين ويسمى قاضي المدينة وينظر الآخر في الدعاوي التي تنشأ بين الوطنيين والاجانب ويسمى قاضي الاجانب وهناك محكمتان لان الغريب لا يحاكم امام محكمة الوطنيين .

وهذان القاضيان بالنظر لما لها من السلطة المطلقة يفصلان القضايا على ما يترأى لها . بل ان قاضي الاجانب لم يكن مقيدًا بقانون لان الشرائع الرومانية لم توضع الا للوطنيين الرومانيين . ولما كان كل قاض يتولى منصبه في القضاء سنة واحدة فهو يكتب عند دخوله أمرًا يبين فيه القواعد التي ينوي اتباعها في الاحكام ويسمون هذا الامر امر القاضي . وبعد سنة عند ما تنتهي مدة القاضي يسقط فنه فيحق خلفه ان يسن قانونًا مغايرًا لقانون سلفه جملة واحدة ولكن جرت العادة ان يحتفظ كل قاض بما صدر عن اسلافه من الاوامر فيدخل فيها بعض التبديلات ويضيف اليها بعض زيادات . وهكذا اتجمعت أوامر القضاة

قروناً . ثم أنشأ الامبراطور هاردن في القرن الثاني « براءة القاضي » وجعلها قانوناً مرعي الاجراء .

واذ كان هناك محكمتان منفصلتان احدهما عن الاخرى وضعت قاعدتان متباينتان وقانونان مختلفان فتتألف من القواعد المتبعة التي يجري عليها قاضي المدينة في مسائل الوطنيين الحقوق المدنية أي حقوق المدينة ومن القواعد التي يجري عليها قاضي الاجانب تتألف حقوق الناس اي الشعوب (الغربية عن رومية) فادرك القوم اذ ذاك ان عدل هذه القواعد في الحقوق وبسطها واعتقلها وبالاجمال افضلها الحقوق الاجنبية وان حقوق الوطنيين المأخوذة ضمن قواعد محصورة عن قدماء الرومان كان فيها خشونة وقواعد بربرية . اما حقوق الناس (الاجانب) فكان اساسها على العكس عادات التجار وعادات أناس من بلاد مختلفة نزلوا رومية وهي عادات سائلة من كل شائبة ووم وحي أخذت بمرور الايام واقرها الاختبار قروناً كثيرة . ورأى القوم كيف كانت الحقوق القديمة تخالفة للعقل . فقد جاء في بعض الامثال الرومانية « ان الحق الناصع هو الذي نضضه سلطة عليا ظالمة » وعلى هذا أنشأ قضاة الوطنيين يسمحون القانون القديم ويحكمون باحكام العدل حتى بلغوا بالتدريج ان ينفذوا في الوطنيين نفس القواعد التي كان قاضي الاجانب يجري عليها في محكمته .

مثال ذلك ان القانون الروماني يقضي ان يرث الاقارب من الذكور فقط الا ان القاضي دعا الاقارب من النساء ان يشتركن في الارث . ويقضي القانون القديم بان لا يكون المرء صاحب ملك الا اذا قام بالاحتفال في المبيع فاعترف القاضي بانه يكفي المبتاع ان ينقد البائع ثمن ما لباعه وان يضع يده على الملك حتى يعد مالكا . وانت ترى ان حقوق الاجانب تغلبت على الحقوق المدنية وأبطلتها

القانون المسطر = أنشئت الحقوق الرومانية على عهد الامبراطرة خاصة فاصدر الامبراطرة الانطونيون كثير من الاوامر والوائح وكانت هذه رسائل تصدر عن الامبراطور جواباً عن الموظفين الذين يستطلعون طلع آرائهم فيساعدهم على القيام بهذا اصلاح القضائي اناس من المشرعين عندهم وظل بعض المشرعين في أوائل القرن الثالث زمن من حلت سيرتهم او ساءت من الامبراطرة يضعون القوانين الجديدة في الحقوق ويصلحون ما وجدوه منها قديماً . ومن أشهرهم بائنين واولبين ومودستين وبولس فان تأليفهم هي التي كانت أساساً للحقوق الرومانية بعد

وهذه الحقوق التي نظمت في القرن الثالث لاشبهة بينها وبين الحقوق الرومانية القديمة بحال من الاحوال اذ القديمة لم تكن ترحم الضعفاء فاقنيس المنشعرون افكار فلاسفة اليونان

ولا سيما الرواقيين منهم وذهبوا الى ان الحرية حق طبيعي لكل من يولد حراً أي ان العبودية مخالفة للطبيعة ولذلك رأوا انه يحق للعبد ان يطلب انصافه حتى من سيده وان هذا اذا قتل عبده يجب ان يعاقب عقاب القاتل وكذلك حموا الولد من ظلم ابيه وهذا القانون الجديد هو الذي سموه بعد بالقانون المسطور وهو الحقيقة في قانون جرواقيه مع الفلسفة على نحو ما يأمر به العقل الناس كافة ولذا لم يبق فيه اثر للقانون الجائر المعروف بقانون الاثنتي عشرة لوحة . فليس القانون الروماني الذي حكمت به بلاد الامبراطورية بأسرها زماناً طويلاً ذلك القانون الذي لم يبرح بعضه داخلياً في قوانيننا بل هو قانون قدماء الرومان وضع بحسب عادات جميع الشعوب القديمة ونسج فيه على مثال الحكم الماثورة عن حكماء اليونان ثم مزج كل ذلك مزيجاً واحداً وكتبه اناس من الحكماء والفقهاء الرومانيين قروناً طويلة

النصرانية

تعليم المسيح (عليه السلام) = كان الاسرائيليون ينتظرون المسيح من نسل داود ملكاً لهم ومخلصاً فظهر عيسى في الناصرة في ولاية صغرى، من الشمال اسمها الجليل لا تكاد تعرف بانها يهودية . ولد من امرة وضبعة تحترف بالتجارة . فسماه اتباعه من الروم المسيح اي الممسوح يعنون الملك الممسوح بالزيت المقدس كما دعي السيد والرب والمخلص . كلنا نعرف الديانة المسيحية . فيكفي اذاً ان تبين ماهي التعاليم الجديدة التي نشرتها في العالم . فقد اوصى المسيح اولاً بالمحبة فقال « انك تحب الرب الهك من كل جوارحك وفكرك وستحب قريبك كما تحب نفسك فجميع الشريعة وتعاليم الانبياء داخلة في هاتين الوصيتين »

فن الواجب محبة الغير واسعا لهم ومتى قضى الله بين عباده يجعل على يمينه من اطعموا الجياع وسقوا العطاش وكسا العراة . ويقول المسيح لمن يريد اتباعه اولاً : « اذهب فبع مالك وادفعه للفقراء ولقد كان القدماء يعتبرون الشريف والغني والشجاع هو الرجل الصالح الا ان هذا الاسم تغير معناه منذ جاء المسيح فاصبح الرجل الصالح هو الذي يحب غيره . فعمل الخير هو محبة الغير والسعي في تقويم . والاحسان (وهو باللاتينية مرادف للحب) اساس التقوى . وغدت لفظة محب مرادفة للفظة محسن . وضع المسيح تعليمه في الاحسان بدلاً من التعاليم الاسرائيلية القديمة في الانتقام فقال « عرفتم بانه قيل العين بالعين والسن بالسن اما الآن فاقول لكم اذا ضربكم احد على خدكم الايمن فقدموا له الايسر وقيل احبوا قريبكم وايغضوا عدوكم اما انا فاقول لكم احبوا اعداءكم وافعلوا الخير مع من يعضونكم وباركوا لمن يضطهدونكم لتكونوا ابناء ابيكم الذي في السماء الذي ينزل المطر على العادلين والظالمين

الجزء ١١ (٨٩) المجلد ٣ من المقتبس

حتى ان المسيح وهو على الصليب استغفر لجلاديه فقال « اعف عنهم يا رب فانهم لا يعرفون ما هم فاعلون » .

احب المسيح الناس فاطبة . ومات لا من اجل شعب واحد بل من اجل الانسانية كلها . وما قط ميز بين الاشخاص فكلهم سواء امام الله . ولقد كانت الاديان القديمة حتى دين اسرائيل دين شعب يحتفظ به ويكتفه بعناية احتفاظه بكنز ثمين دون ان تحده نفسه في تبليغه شعباً آخر فقال المسيح لتلاميذه اذهبوا اذاً وعلموا جميع الامم .

وبعد ذلك قام بولس احد الحوار بين وفرر تعليم المساواة النصرانية بقوله : « لم يبق اولون ولا آخرون كما لم يبق روم ولا يهود ولا مطهرون ولا قلوب ولا برابرة ولا عبيد ولا احرار فقد اصبح المسيح هو الكل في الكل » .

كان القدماء يذهبون الى ان الثروة تعلي شأن الانسان و ينظرون الى ان الكبر عاطفة شريفة فقال المسيح : « طوبى للفقراء فان لهم ملكوت السموات » « من لم يتنازل عما يملكه لا يكون تلميذاً لي » حتى انه هو ايضاً كان ينتقل من مدينة الى مدينة ولا سبيل له ولا ليد وعند ما كان تلاميذه يهتمون للمستقبل كان يقول لهم : « لا تعلقوا لماناً كون ولا لمتلبسون والقوا بانظاركم الى الطيور في السماء فهي لا تزرع ولا تحصد ومع هذا فان اباكم السماوي متكفل برزقها »

فعلى المسيحي ان يحتقر الثروة وان يشتد في الازدراء بالعظمة . كان تلاميذه يتنازعون ذات يوم فيمن يكون له المقام الاول في السماء فقال : « ان اعظمكم هو الذي يخدم غيره لان من يرتفع يسقط ومن يسقط يرتفع » وما زال البابا الى اليوم وهو خليفة القديس بولس يدعى بخادم خدمة المولى . كان المسيح يؤثر ان يجتذب اليه المساكين والمرضى والنساء والاولاد بل والضعاف والمحرمين واختار حواريه من عامة الناس وكان يكرر على مسامعهم « تعلقوا وابنوا قلوبكم »

ملكوت الله — كان المسيح يقول انه جاء الى الارض ليؤسس ملكوت الله . فظن اعداؤه انه طامع في ملك وعند ما صلب كتبت على صليبه هذه العبارة : « يسوع الناصرة ملك اليهود » وهذا كان خلاف ما يقصده . فقد صرح المسيح نفسه بان ملكوتي ليس في هذا الارض . فلم يجي . ليقلب الحكومات ولا ليصلح المجتمع واجاب من سألته اذا كان يجب اداء الجزية للرومانيين بقوله : « ادفع ما لقيصر لقيصر واد ما لله لله » ولذا رضي المسيح بما رآه موجوداً وعمل على تهذيب نفسه وتكليفها لا على اصلاح المجتمع وللاجل ان يفوز المسيحي بمرضاة الله ويكون اهلاً لبلوغ ملكوته لا يقتضي له ان يقدم

النذور ويقف عند حد ما رسمته الشريعة كما فعل الفريسيون اليهود او عبدة الارباب القديمة « فان المتعبدين الحقيقيين يعبدون اباهم بالفكر والحقيقة » وكلمة المسيح هي جماع آدابهم وهي : « كونوا كاملين مثل ابيكم الذي في السموات فانه كامل »

الحواريون — عهد الى الاثني عشر حوارياً الذين كانوا ملتفين حول المسيح ان يبشروا بتعاليمه في الامم باسرها . فدعوا بالحواريين (المرسلين) سكن معظمهم القدس ودعوا الى دينهم في ارض اليهودية . وكان المنتصرة الاول من الاسرائيليين .

وكان شاول اول من دان بالنصرانية وخف يحمل تعاليم هذا الدين الي امم الشرق فقضى بولس (هو الاسم الذي اتخذ) حياته يطوف المدن اليونانية في آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومكدونية داعياً الى الدين الجديد لا الاسرائيليين فقط بل ابناء الامم الاخرى قائلاً كنتم فيما سبق بدون المسيح بعيدين عن المحالفات والوعود وها قد الانتم تثملكم بدم المسيح لانه هو لا يميز بين الشعبين وينظر اليهما كأنهما شعب واحد . ولم يعد من حاجة ان يكون المرء اسرائيلياً حتى يتنحل النصرانية فان الامم الاخرى التي نبذتها شريعة موسى قد تقاربت فيما بينها بفضل شريعة المسيح . وهذا الامتزاج هو بصنع القديس بولس ولذا سمي رسول الامم .

كان المنتحلون للنصرانية باديء بدء من يونان آسيا الصغرى ثم انصر كثيرون في جميع المدن الكبرى واتى زمن طويل والطائفة المسيحية في رومية ايضاً مؤلفة من ابناء يونان . فانتشر دين المسيح اولاً ببطء على نحو ما بشر بذلك المسيح بقوله : « يشبه ملكوت الله حبة من الخردل فهي اصغر الحبوب ومع هذا ينبت منها نبات اطول من جميع البقول فتؤوي طيور السماء الى ظلها » .

الكنيسة الاصلية — كان المسيحيون في جميع البلاد التي نزلوها يجتمعون للصلاة جماعة وانشاد امدائح المولى وللاحتفال بالشاء السري وهي اكلة يتناولونها بالاشترك تذكراً لآخر اكلة للمسيح وتسمى اجتماعهم الكنيسة (المجلس)

ومن العادة ان يعامل المسيحيون في كنيسة واحدة بعضهم بعضاً معاملة الاخوة ويأتون بالعطايا لينفقوها على الارامل والفقراء والمرضى . واكثر رجالاتهم احتراماً بينهم الرهبان ومعنى ذلك القدماء يديرون شؤون الطائفة ويقومون بالقروض الدينية . ويتولى آخرون النظر في املاك الطائفة وكانوا يدعون الشماسة (الملاحظون) ثم كثرت اعمال الكنيسة حتى انقسم سواد المسيحيين الى فرقتين احدهما جماعة المكلفين بالنظر في وظائف الطائفة وسموهم رجال الكهنوت (اي خدمة الرب) والباقيون هم جمهور المؤمنين سموهم العامة (العلمانيين)

كان لكل مدينة كنيسة - منفصلة فيقولون كنيسة انطاكية وكنيسة كورنث وكنيسة رومية وكلها في الحقيقة كنيسة واحدة وهي كنيسة المسيح حيث كان يربط الجميع الاعتقاد بآباء واحد . فلا اعتقاد العام او الكاثوليكي كان هو المول عليه دون سواء اما الاراء الخاصة (المرطقات والاحاد) فكان يحكم عليها بانها اوهام واغلاط .

وبقي الكتاب المقدس عند اليهود اي العهد القديم مقدساً عند المسيحيين وصار لهؤلاء كتب اخرى جمعتها الكنيسة في مصحف واحد وسمتها العهد الجديد . فالانجيل الاربعة نقص حياة المسيح والبشارة بما حمله من السلام . واعمال المرسل تذكر كيف انتشرت هذه البشارة في العالم . ورسائل الرسل هي رسائل ارسلها الحواريون الى مسيحي العهد الاول والابوكاليسيس (رويا القديس يوحنا الانجيلي او الجليلان) هو ما اوحاه القديس يوحنا الى السبع كنائس في آسيا . كتبت جميع كتابات العهد الجديد باليونانية وهي اللغة التي كانت لغة المسيحيين الى اواخر القرن الثاني وقد انتشر بين المسيحيين كثير من الكتب زعموا انها مقدسة فرفضتها الكنيسة كلها وسموها المزورة

الاضطهادات - اضطهدت الديانة المسيحية منذ ظهورها فكان اليهود اعداءها الاول اضطروا الحاكم الروماني في بلادهم الى صلب المسيح ورجعوا القديس اتين (الشهيد الاول) واشتدوا في طلب القديس بولس وكادوا يقتلونه ثم وقع الاضطهاد على النصرانية من الرومان فان هؤلاء كانوا ينساقون مع جميع اديان الشرق لان عبدة اوزيريس وميترا والربة الصالحة كانوا يعترفون بالاديان الرومانية مع اربابهم الا ان المسيحيين عبدة الله الحي كانوا يزدرون بالمعبودات الصغيرة القديمة بل ان الجريمة الكبرى التي تعد على المسيحيين في نظر الرومانيين انهم كانوا يابون عبادة الامبراطور كما يعبد رب وان يحرقوا بالنور على مذبح ربة رومية

وقد اصدر كثير من الامبراطرة اوامر الى ولايتهم بأمر ونهيم بالقبض على المسيحيين واعدامهم . وقد كتب بلين وكان والياً في آسيا الى الامبراطور تراجان كتاباً يدل على الطريقة التي كان يعامل بها المسيحيون قال : «جربت الآن مع من اتهموا بانهم نصارى على الطريقة الآتية وهو افي أسألهم عما اذا كانوا مسيحيين فإذا اقرروا أعيد عليهم السؤال ثانية وثالثة مهدداً اياهم بالقتل فان اصرروا أنفذ عقوبة الاعدام عليهم مقتنعاً بان غلظتهم الذي يعترفون به مما كانت فظاعته وان عنادهم الشديد وعدم طاعتهم يستحقان العقوبة . وقد وجهت الشكوى الى كثيرين بكتب لم تذيل باسماء اصحابها فانكروا بانهم نصارى وكرروا الصلاة على الارباب الذين ذكرت اسماءها امامهم وقدموا الخمر والنور لثثال

أثبت به عمداً مع ثائيل الارباب بل انهم شتموا المسيح . ويقال ان من الصعب اكراه
النصارى الحقيقيين . ومنهم من اعترفوا بانهم نصارى ولكنهم كانوا يثبتون بان جريمتهم
وخطأهم معصوران في انهم اجتمعوا بعض ايام قبل طلوع الشمس على عبادة المسيح على انه
رب . وعلى انشاد الاناشيد اكراماً له وتعاهدوا بينهم مسمين الایمانات لاعلى ارتكاب جريمة
بل على ان لا يسرقوا ولا يقتلوا ولا يزناوا ويوفوا بعهودهم . ورأيت من الضرورة للوقوف على
الحقيقة ان أعذب امرأتين أميتين دعوهما خادمي الكنيسة بيد افني لم افق على شيء اللهم
الاما كان من خرافة سخيفة مبالغ فيها »

وعلى هذا فقد كانت الحكومة هي المضطهدة (١) الا ان العامة في المدن الكبرى كانوا
أكثر اضطهاداً «مسيحيين فلم يكونوا يسمعون مع هؤلاء الذين يعبدون لها آخر غيرار بابهم
ويحتقر هذه الارباب ويرون ان انكار المسيحيين لما يعبد الرومان يجلب على العالم غضب
هذه الارباب . وكنت نسمع القوم اذا وقع نخط ومجاعة ووباء يهتفون هتافهم الذي اشتهر
امره «النصارى للأسود» والشعب يكره الحكماء على البحث عن المسيحيين ومطاردتهم .

الشهداء — هلك الوف من المسيحيين في خلال قرنين ونصف ناهلهم فيها الاضطهاد في
طول المملكة الرومانية وعرضها وكان المالكون من كل سن وجنس وطبقة . فالوصنيون
الرومانيون تضرب اعناقهم كما جرى للقدنيس بولس والباقيون يصلبون ويحرقون وكثيراً ما
يلقون للوحوش الكاسرة نهنهم . واذا ابقوا عليهم يبعثون بهم الى الاعمال الشاقة في المناجم
وكثيراً ما كانوا يبالغون في عقاب النصارى بايجاد وسائل لاهلاكهم من كل نوع . ففي
المقتلة العظمى التي وقعت في ليون سنة ١٧٧ اخذ المسيحيون بعد ان عذبوا وسجنوا في مطبق
ضيق الى الملعب فاخذت الحيوانات الكاسرة تمزق اوصالهم ولا تقتلهم ثم اجلسوهم على كراسي
من حديد محماة بالنار . واذا قاومت فتاة من الامماء اسمها بلاندين انت تعذب على هذه
الصورة جمالوها في شبكة ووضعوها امام ثور غضبان .

وكان المسيحيون يتلقون بسرور هذا التعذيب الذي يفتح لهم ابواب السموات ويرون
فيه وسيلة الى الاستشهاد علناً في حب المسيح ولذلك كانوا يسمون انفسهم بالشهداء (اي
الشهود) لا بالمتكويين وعقوبتهم شهادة . بل انهم كانوا ينظرون الى تعذيبهم نظراً الى
قتال الالامب الاولبية ويرون انهم كالمصارع الظافر ينالون الفخار والتاج . وما يرحوا حتى
اليوم يحتفلون بعيد الشهداء واعيادهم موافقة للايام التي قتلوا فيها وكثيراً ما كان احد من

(١) نقول ان كنيسة ان المسيحيين اضطهدوا مرات الاولى على عهد نيرون (٦٤) والثانية

يحضرون تعذيب احد الشهداء يكتب قصته وكيفية توقيفه واستنطاقه وتعذيبه وعقوبته وهذه الكتابات على اختصارها طائفة بالعبارة وكانت تسمى اعمال الشهداء وتنتشر حتى بين الطوائف البعيدة من اقصى المملكة الى افصاها وما هي الا مرددة المجد الذي احرزه المعترفون بالايمان الصحيح وداعية الى الترغيب في الجري على مثالم

ولقد حدا حب الشهادة بالوف من المسيحيين ان يعلنوا امرهم بانفسهم ويطالبوا بالحكم عليهم وامر احد حكام آسيا ذات يوم بالقاء القبض على بعض المسيحيين فجاء جميع متنصرة المدينة يتقدمون للمحكمة طالبين اليها محاكمتهم . فاستشاط الوالي غضباً فقتل بعضهم وطرد الآخرين قائلاً : « ارجعوا اليها الاسفل ان كنتم تحرصون كثيراً على الموت فهل عندكم قبور تسعكم وحبال ثقيدكم » وكان بعض المسيحيين يدخلون المعابد وبقبلون فيها اصنام الارباب ليكونوا على ثقة من انهم يشقون حتى قضت الحال ان تمنع الكنيسة مرات تعرض النصارى لنيل الشهادة

الدياميس — كان المسيحيون يتكروون العادة القديمة في احراق الموتى فاخذوا يدفنون موتاهم كاليهود في نوايس بعد ان بكفنوه في اكفان فاحتاجوا الى قبور . واذا كانت الارض غالية الثمن جداً نزل المسيحيون الى تحت الارض وحفروا في الارض الرخوة التي كانت رومية قائمة عليها دهاليز طويلة وغرفاً ارضية وهناك كان المسيحيون في مقاصير احتفروها على طول الحواجز يدفنون موتاهم واذا خذ كل جبل يحفر لنفسه دهاليز جديدة صارت تحت الارض مع الزمن مدينة ارضية سموها الدياميس . ومثل هذه الدياميس كان في نابولي وميلان والاسكندرية الا ان اشهرها دياميس رومية . وقد فتحت في ايامنا فראوا فيها الوفا من القبور والكتابات النصرانية وبالكشف هذا العالم المدفون تحت الارض نشأ فرع جديد من فروع العلوم التاريخية وهو علم الكتابات والآثار النصرانية . وقد شوهد ان قاعات المدافن في الدياميس منقوشة برسوم بسيطة وصور ولكنها تمثل مشاهد واحدة الاقبال وهي اما ان تصور المؤمنين من المسيحيين في الصلاة او الراعي الصالح وهو رمز للمسيح . وكانت بعض هذه القاعات اشبه بالمعابد وفيها دفنوا جثث القديسين الشهداء والمؤمنين الذين رغبوا في ان يدفنوا في جوارهم وكانوا يأتون كل سنة لتناول الامرار . وكثيراً ما التقيا المسيحيون في رومية خلال اضطهادات القرن الثالث الى هذه الكنائس الارضية للقيام بصلاواتهم او للفرار من الطلب عليهم .

قسطنطين

تغلب النصرانية — مضى القرنان الاولان للميلاد والمسيحيون ضعاف الثأث في

الامبراطورية الرومانية وجمهورهم من السوق والمعملة والعيبد المعنقين والعيبد ممن يضيعون في غمار الناس بالمدن الكبرى وقد مضى زمن والطبقة العالية ننكر وجودهم حتى ان سويتون في القرن الثاني لما تكلم في تاريخ القياصرة على المسيح قال انه رجل اسمه كريسستوس يلقي الاضطراب بين سكان رومية . ولما اخذ الاغنياء والادباء يعنون بامر الدين الجديد لم يكن ذلك منهم الا ليهزوا به ولا يذكرونه الا انه دين فقراء وجهلة . واذ جاءت النصرانية لمساكين هذا العالم بان وتشتهر الجزاء عن هذه الحياة في الآخرة كثر اشياؤها والقائلون بالثدين بها ولم تحل الاضطهادات دون انتشارها بل قوتها وبعث كتبها فقد كان المسيحيون يقولون ان دم الشهداء بذر للمسيحيين ولقد ظل الالتهاد الى النصرانية ينشر خلال القرن الثالث كله بين رجال الاسرات الكبرى لا بين الفقراء فقط وما جاءت اوائل القرن الرابع الا وقد اصبح الشرق كله اي البلاد التي نكلم باللغة اليونانية مسيحياً باسمه وكانت هيلانة ام الامبراطور قسطنطين مسيحية جعلتها الكنيسة في مصاف القديسات ولما زحف هذا الامبراطور على مزاحمه ملك رومية وضع على علمه شارة الصليب وشعار المسيح وكانت الغلبة التي كتبت له غلبة للنصرانية فسمح للنصارى ان يقوموا بشعائر دينهم دون ان يعارضهم احد (بامره الصادر سنة ٣١٣) ثم اخذ يعطف عليهم جهاراً . ومع هذا لم يخل عن الدين القديم (الوثنية) . فبينما كنت نراه يرأس مجلس اساقفة المسيحيين الاعلى كان يلقب بلقب الحبر الاعظم ويعمل على خوذته مسجراً من الصليب الحقيقي ونقوده منقوش عليها صورة رب الشمس . وقد انشأ في مدينة القسطنطينية كنيسة نصرانية كما انشأ معبداً تذكراً لهذه الغلبة . ومضى نصف قرن كان فيه من الصعب معرفة دين المملكة الرسمي في الامبراطورية .

تنظيم الكنيسة — لم يخطر في بال المسيحيين حتي في الازمان التي نالم فيها الاضطهاد ان يقلبوا كيان الامبراطورية ومنذ بطل اضطهادهم اصبح اساقفتهم حلفاء الامبراطور وعندها انتظمت حالة الكنيسة المسيحية بصورة فعلية على الصورة التي بقيت عليها الى يومنا هذا . فصار لكل مدينة اسقف يقيم في الحاضرة ويحكم على المسيحيين التابعين لها وتسمى الارض الخاضعة لاسقف ابرشية . وكان في اقطار الامبراطورية الرومانية ابرشيات واساقفة على قدر ما فيها من مدن وهذا هو السبب الذي من اجله كان الاساقفة كثيرين والابرشيات صغيرة في الشرق وفي ايطاليا حيث كثر عدد المدن . وعلى العكس في مدن ناليا فانه لم يكن بين الرين والبيرنيه سوى ١٢٠ ابرشية ومعظمها ما عدا ابرشيات الجنوب في الجسامة كولاية .

أصبحت كل ولاية مقاطعة كنائسية وسمي اسقف العاصمة اسقف المركز بعد رئيس الاساقفة . وكثيراً ما ينظر الى اسقف اعظم مدينة في بقعة بانه ارق الاساقفة في تلك الارزاء وكان اساقفة المدن الرئيسة بالشرق في القدس وانطاكية والاسكندرية والاستانة يدعون بالبطاركة وفوقهم كلهم البابا اسقف رومية وهو الرئيس الاعظم في الكنيسة . وفي هذا القرن انشئت الجماع الدينية الكبرى فكان في آسيا الصغرى اولاً مجامع خاصة يجتمع فيها اساقفة ناحية من النواحي وكنتها . وفي سنة ٣٣٤ دعا قسطنطين للمرة الاولى مجعاً دينياً عاماً من اهل الارض الى مدينة نيقية في آسيا الصغرى فحضره ٣١٨ رجلاً من رجال الكنيسة فتناقشوا في المسائل اللاهوتية وانشؤا الاعتراف بايمان الكاثوليك الذي سموه قانون نيقية وما زال المسيحيون ينشدونه الى اليوم في قداس كل احد . ثم كتب الامبراطور الى عامة الكنائس ان تمتثل ارادة المولى التي تجلت فيها اجمع عليه المجمع العام وكان هذا هو المجمع المسكوني الاول . واصبحت القرارات التي تقررها المجامع شرعية يجب على المسيحيين قاطبة ان يعملوا بها وسموها القوانين او القواعد . ويتألف من مجموع هذه القواعد القوانين الكنائسية .

الملاحدة (الهرطقة) - نشأ منذ القرن الثاني بين المسيحيين ملاحدة يخالفون في آرائهم السواد الاعظم من أبناء الكنيسة . وكثيراً ما اجتمع الاساقفة في بلد ليعملوا المؤمنين بان المذهب الجديد باطل ويكرهوا مبتدعه على الرجوع عنه واذا ابى يخرجونه من الوحدة المسيحية . وقد يستقيش صاحب البدعة اعواناً يقتنعون بهمة دعوته فلا يرون الرجوع عما وافقوه عليه ويظنون يدينون بماحكم المجمع برده من الآراء . ومن هنا نشأت العداوات والفتن الشديدة بينهم وبين المسيحيين المتعلقين برأي الكنيسة (الارثوذكس) واذ كان المسيحيون ضعافاً ومضطهدين لم يتنازعوا بينهم الا بالكلام والكتابة ولكن لما أصبحت البلاد مسيحية كلها استحال النزاع بين المسيحيين والمخالفين منهم في بعض الآراء الى اضطهاد الملاحدة وكثيراً ما تشب منه حروب اهلية .

وتكاد تنشأ جميع البدع في ذاك العهد بين يونان آسيا ومصر على يد اناس من الازكيا والسفسطائيين والمجادلين وقد نشأت تلك البدع في العادة من محاولة فهم اسرار التثليث والتجسد . وكانت بدعة آريوس اقوى جميع البدع فمن مذهبه ان الله الآب خلق المسيح وليس هو مثله فحكم المجمع النيقية بتبديعه ولكن مذهبه انتشر في بلاد الشرق عامة . ومذ ذاك العهد ظل الكاثوليك والاربيسيون يتنازعون بينهم ايهم يستأثر بالسلطة في الكنيسة والحزب الاقوى يعزل وينفي ويحبس واحياناً يذبح زعماء الحزب المخالف . ومضى زمن

والقوة للآريوسيين وقد تحزب لقولهم عدة من الامبراطورة ثم ان الآريوسية كانت لقوى
بكثرة دخول البرابرة في الامبراطورية وتمذهبهم بهذا المذهب ومعاضدتهم لاساقفتهم .
فقضى الكاثوليك زهاء مائتي سنة حتى قضوا على هذا المذهب المبتدع .

اواخر ايام الامبراطورية

لما ذبح الجنود اخوة قسطنطين وابناء اخته سنة ٣٣٨ اقلت منهم طفل في السادسة
من عمره اسمه جولين فجعله الامبراطور نسيبه سيفي اقاصي آسيا الصغرى ورباه على يد
قسيسين مسيحيين فبعث به هؤلاء الى قبر الشهداء بنشد المزامير ويتلو الكتاب المقدس
امام الشعب ولما شب رخص له بالقدوم الى الاستانة فائتأ يدرس كتب بلغاء الروم
وفلاسفتهم واولع باحد الفلاسفة الافلاطونيين فانصرفت نفسه عن النصرانية . واتم دروسه
في آثينا وتعلم فيها امرار معبد الوزير ثم جاهر بانه من اشباع الدين القديم علناً واخذ
يحتفل بعبادة الارباب فلقبه المسيحيون بالمرتد .

كان جولين آخر من بقي حياً من الاسرة الامبراطورية واذا لم يكن للامبراطور قسطنطين
وارث يرثه غير هذا اجمع امره على ان يلقبه باسم قيصر وبعث به قائداً على جيش غاليا
(٣٥٥) وكانت البرابرة قد هاجمت هذه البلاد وجاءت عصابة من الالمانيين على مقربة من
مدينة اوتون . واذا لم يكن لجولين خبرة بالحرب انصرفت همته الى درس الفلسفة فصرف
شئاً بطوله في تعلم صناعة الكر والفر واشأ يريض نفسه ويتمرن ويتلو سيرة مشاهيرة الغزاة
فلما تم له ذلك حمل على الالمان في جيش صغير من المشاة الرومانيين والفرسان البرابرة
فكتب له الظفر في الحملة الثانية في سهل بالقرب من مدينة ستراسبورغ وركب اكتشاف
الالمان ورجعوا يجتازون نهر الرين (٣٥٧) وقضى جولين في غاليا ثلاث سنين اخرى وجعل
مشتاء في بلدة لوتيس حاضرة الشعب الباريزي وهي مبنيّة في جزيرة من جزر الدين وكان
يدعوها « لوتيس المحبوبة » وهو اول من وصفها .

وفي هذه المدينة اثناء امر الامبراطور ان يبعث اليه بقدوم من جيشه الى الشرق ليقاتل
البارثيين الذين داهموا بلاد الامبراطورية فلم ير الجند ان يعتمدوا عن بلادهم الى مثل تلك
القاصية ابوا ان يقاتلوا ثم اخذوا جولين ورفعوه على ترس وكان هذا الالوب هو الذي يجري
عليه المحاربون الجرمانيون في مبايعة ملوكهم وحملوه وهم ينادون « جولين اغسطس » (٣٦٠)
فكتب جولين الى الامبراطور يريد ان يرتضيه رعيماً له فابى قسطنطين عليه
ذلك فزحف جولين في جيشه على القسطنطينية وكان قسطنطين قضى نحبه قبل وصوله (٣٦١)
ولما خلا الجو لجولين واصبح امبراطوراً وحده اقام في الشرق وحاول ان يعيد الدين

القديم (الوثنية) فارجع الى الكهنة املاكهم ومناصبيهم واعاد تقديم التذوق الارباب بل
 اصدر امره الى المسيحيين بان يرجعوا المعابد التي كانوا حولوها الى كنائس
 وانثأ يناهض النصرانية مباشرة واذا ان يعين المسيحيين في الوظائف وطرد المعلمين
 المسيحيين من المدارس قائلًا انه لا يلقى لهم ان يدرسوا كتبًا يذكر فيها اسم الارباب وهم
 لا يعتقدون فيها . وسعى الى اعادة الدين القديم الى حاله بان عهد الى الكهنة ان يقرؤا
 على العامة مواظ ودرسًا دينية الا ان الزمن خافه فاسفر في حملة على البارثيين وعلبهم
 واصيب بسهم في احدى المعارك . وقيل انه صرخ وهو يجود بنفسه «لقد غلبت يا غاليلي !»
 القضاء على الوثنية — لم يقض على دين السوق القديم لاول مرة فقد اهدى الشرق
 في الحال اما في الغرب فلم يبق مسيحيون الا في المدن بل ان الامة ظلت هنا أيضًا تعبد
 الاصنام وذلك لان الامبراطورة الاول المسيحية لم يريدوا ان يقضوا القضاء الاخير على
 دين المملكة القديم بل كانوا يحمون القسوس المسيحيين كما يحمون كهنة الارباب يرأسون
 الجماع الدينية ويقون اجارًا عظامًا . وكان الامبراطور فراسين سنة ٣٨٤ اول من ادى
 ان يلقب بالحبر الاعظم واذ عم التسامح في ذلك القرن بديء باضطهاد الدين الروماني منذ
 غدا غير رسمي . واطفي الموقد المقدس الذي كان يشتعل في رومية منذ احد عشر قرنًا
 وطردت الكاهنات اللاتي كن في معبد فستا بوقدن النار كما خمدت . واحتفل آخر مرة
 بالالعاب الاولمبية في بلاد يونان سنة ٣٩٤ . وعندئذ خرج النساك في مصر من الصحراء
 لينقضوا مذابح الارباب المزورة ويحعلوا بقاياها في قبور انوبيس وسيرايس . وقام وارسل
 الاسقف السوري في مقدمة عصابة من الجند والمثعوزين لغرب معبد المشتري في اقامية
 وانثأ يجوب البلاد ويخرب المزارات فقتله الفلاحون فجعلته الكنيسة من القديسين
 فما هو الا قليل حتى لم يبق عبدة اوثان الا في القرى بأوون اليها فرارًا من المراقبة
 وهم فلاحون ممن بقوا يعبدون الاشجار المقدسة والبنابيع ويجمعون في المزارات البعيدة .
 واخذ المسيحيون يطلقون اسم الوثنيين (الفلاحين) على من كانوا سموهم الى ذلك العهد بالظرفاء
 وبقي ذلك الاسم يطلق عليهم . وهكذا اشتدت الحال على الوثنية في ايطاليا وغاليا واسبانيا
 الى اواخر القرن الرابع وطوي بساطها تحت طي السكوت .

التنظيم الجديد في الامبراطورية

رومية والقسطنطينية — خرب الغرب وقل سكانه في القرن الثالث بما نواتر عليه من
 الحروب والغارات فاصبح الشرق البيزناني القسم المهم من الامبراطورية . وكان ديوكسين
 قد تخلى عن رومية وجعل عاصمته في نيكوميديا في آسيا الصغرى . اما قسطنطين فتوسع

في الامر أكثر من ذلك فانشأ رومية جديدة في الشرق وكانت القسطنطينية على رأس من البحر في محل لا يفصل اوربا عن آسيا غير خليج البوسفور الضيق في ارض كثيرة الكروم والغلات وتحت سماء صافية الاديان وانشأ طواري من الروم مدينة بيزانس وكان لها من الآكام ما يجعلها سهلة على الدفاع ومرفأها المعروف بقرن الذهب من احسن مرافئ العالم يؤوي ١٢٠٠ سفينة ويمكن سده بسلسلة طولها ٢٥٠ مترًا ثلاثا تخطأ اساطيل العدو . فهناك أنشأ قسطنطين مدينته الجديدة القسطنطينية (مدينة قسطنطين) وجعل في اطراف السور عالية وانشأ فيها ساحتين اثنتين تحيط بهما الروقة . وانشأ فيها قصرًا وملعبًا ودور تمثيل وافنية وحمامات ومعابد وكنيسة مسيحية

ونزع قسطنطين من المدنت الاخرى ما كان فيها من التاثير والنقوش البارزة المشهورة ليزين بها مدينته ولاجل اسكانها نقل اليها سكان المدنت الجاورة بالقوة وقدر مكافآت والقاب تشريف للأمر الكبرى التي تنتقل اليها وقرر كما كان الحال في رومية توزيع الخنطة والخمر والزيت على الناس وتوفير المشاهد والفرج لهم

فكان تأسيس تلك العاصمة من السرعة الغربية على نحو ما يجب القوم في الشرق فبدأ العمل بذلك في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ٣٢٦ واحتفل بانفتاحها في ١١ ايار (مايو) سنة ٣٣٠ ولكن استمرت حتى على الدهر فقد صارت القسطنطينية على هجمات المهاجمين عشرة قرون وبقيت ب مقام عاصمة ابدًا والمملكة الرومانية شرق ولا تزال الى اليوم اول مدينة في الشرق

ولما ترك الامبراطور رومية لم تعد مقرًا للحكومة وظل فيها مجلس اعيانها وان لم تعد له سلطة وبقب مزاراتها واحتفالاتها كما بقيت الى اواخر القرن الرابع مركز الحزب الديني القديم .
القصر - اخذ الامبراطور الذين نزلوا الشرق في التعمد بعادته (١) وانشأوا يابسون ثيابًا ضافية من الحرير والقصص ويجعلون على رؤوسهم تاجًا مرصعًا بالؤلؤ ويحبسون في قصورهم حيث كانوا يجلسون على عرش من ذهب يحف بهم وزراؤهم ويفصلهم عن الناس جمهور من الحشم والخدم والموظفين والحرس . وعلى من ينال شرف الخطة من

(١) كثيرًا ما يتولى الامبراطورية اثنا احداهما في الشرق والاخر في العرب وان تكن المملكة واحدة . فالامبراطوران وان كان احدهما ينزل الاسنانة والاخر ايطاليا كانا بمنيات بان يكونا كشخص واحد . فكان القوم اذا خاطبوا احدهما يخاطبونه بالجمع فيقولون له انتم كأنهم يخاطبون الامبراطورين كليهما وهكذا نشأت عادة الخطاب بالجمع للمفرد لان الناس في القديم كانوا يخاطبون بصيغة المفرد «انت» حتى الملوك والامبراطور

مواجهتهم ان يتخذ امامهم ويبرغ وجهه في الارض علامة العباداة والخضوع و يطلقون عليهم القاب «المولى» و«الجلالة» ويعاملونهم معاملة الارباب وكل ما ينسب اشخاصهم مقدس فيقولون القصر المقدس والغرفة المقدسة . ويجلس الامبراطورية المقدس والخزانة المقدسة .

فكان عيش الامبراطور في الامبراطورية الغربية (ايطاليا) من القرب الاول الى الثالث اشبه بحياة حاكم او قائد امم قصر الامبراطور في الامبراطورية الشرقية (القسطنطينية) فهو اشبه بقصر ملك فارس . وقد أطلق على طريقة الحكم في الامبراطورية الشرقية اسم الامبراطورية الواثئة معارضة لطريقة الحكم السالفة في القرون الثلاثة التي لقبوها بالامبراطورية العاية .

الموظفون — اصبح الموظفون اكثر عدداً مما كانوا ويحلف بالامبراطور جيش صغير من الخاصة يحرسون قصره وهناك حرس وقرنة وكلاهما وخدم ويجلس عال وحجاب وسعاة وامناء سر ينقسمون الى اربعة مكاتب . واصبح الموظفون في الولايات اكثر سواداً ايضاً اذ رأى الامبراطور ديوكسين الولايات متسعة قسمها الى عدة قطع في غالباً مثلاً قسم ولاية ليون الى اربع واكتبتين الى ثلاث . وبعد ان كان في الامبراطورية ٤٦ والياً اصبح فيها ١١٧ ثم فصلوا الوظائف فجعلوا مع الولاة والوكلاء قواداً عسكريين من دوقات وكننتية في الولايات الواقعة على التقوم .

واصبح جميع الموظفون لا تصلهم اوامر الامبراطور مباشرة فلا يخاطبون الا كبار الموظفين رؤسائهم . فيضع الولاة لفاندي حرس القيعر والموظفون في الاشغال العمومية لحرس المدينة . وجباة الاموال الى الكونت الذي يتولى الاعطيات المقدسة . والوكلاء الكونت المشرف على الاملاك والضباط الى موالى الاجناد وجميع موظفي القيعر يرجعون الى مولى التشرىفات وخدمة القصر الى رئيس الغرفة المقدسة . وهو لاه الرؤساء كالوزراء وهذه الطريقة لا يصعب علينا فهمها فقد اعتدنا ان نرى موظفين وقضاة وقواداً وجباة ومهندسين على اختلاف في اعمالهم التي يتولونها ولكل واحد عمله الخاص ويرجع امرهم الى ناظر هو رئيس ديوانه . بل ان عندنا من النظارات اكثر مما في الاستانة . الا ان هذه الاداة الادارية التي ألفناها لانا نعرفها منذ الطفولة ليس فيها التباس ولا خروج عن حد الطبيعة . فقد كانت الامبراطورية الشرقية نموذجاً في هذا الباب واحتفظت به المملكة البيزنطية ومن ذلك العهد حازت جميع الحكومات المطلقة ان تتسج على منوالها لان في ذلك من التسهيل في العمل ما ينتفع به من يتولون اعمال الحكم .

المتجمع في الامبراطورية الشرقية — كانت هذه الامبراطورية هي الحد الفاصل

في تاريخ الحضارة اجتمعت فيها سلطة الحاكم الروماني المطلقة مع نخفظة ملوك الشرق يتألف منهما سلطة لم يكن بها عهد الى ذاك العهد . وهذه السلطة التي لم يسمع بثقلها تأتي على كل شيء في يدها فلم يعد سكان الامبراطورية وطنيين رومانيين منذ القرن الرابع بل صاروا يدعون باللاتينية الرعايا (الخاضعون) وبارومية « العبيد » فكانوا كلهم من ثم عبيد الامبراطورية ولكنهم يختلفون في المقام وهم درجات في الشرف الذي يوليهم اياه مولاهم ويورثونه ابناءهم واليك تلك المناصب بحسب درجاتها .

(١) اشرف الاشراف وهم الاسرة الامبراطورية

(٢) المشاهير وهم وزراء رؤساء الدواوين

(٣) المعتبرون وهم كبار ارباب المناصب

(٤) المعجودون وهم كبار الموظفين (ويدعون الاعيان)

(٥) اهل الكمال

ولكل صاحب شأن مقامه ولقبه ووظائفه . واكثر الناس احتراماً الندماء والموظفون حتى صرح ان يدعى ذاك العهد عهد الالقاب والتشريفات . وما قط شوهد الى حد تبلغ السلطة المطلقة اذا دعمها الجنود في الالقاب والميل الى ترتيب كل امر بالاكثر من القوانين وعليه فقد كانت الامبراطورية الشرقية مثلاً تماماً تجتمع بدار بالالة الصماء والحكومة فنية في ارادة فيفسرها تخازت اقصى ما يتطال اليه حتى اليوم انصار السلطة المطلقة وسيكافح بعد اشباع الحرية زمناً طويلاً تلك التقاليد التي ابقتها امبراطورية الشرق .

حكومة المدينة — لم يعين الرومان جباية اموال الرعايا بانفسهم بل كان الامبراطور يكتبني ببيان الخراج المطلوب من كل ولاية (وذلك كل خمس سنين في الغالب) ويحدده كما يريد . ويعلم الوالي كل مدينة ما يجب عليها اداؤه . تحكومة المدينة هي التي تقدم المبلغ المطلوب . وما دامت المدينة غنية يجبي الوالي خراجها موزعاً له بين السكان فاذا عجزوا عن الدفع يتحتم على من تولوا الخراج ان يسدوا العجز لانهم مسئولون عن الخراج وخزائنه الامبراطورية لا لتنازل عن حقوقها .

ولقد كان منصب الجباية حتى القرن الثالث مرغوباً فيه كأنه من أسباب الشرف فيعد الجاني في مدينته كعضو الثيوخ في رومية . واذا افتقرت البلاد يعود منصب الجباية من المناصب التي تكسر متوليها فتزهد النفوس في توليتها . فرأى الامبراطورة ان يسنوا قانوناً لعقاب من يأخذ جباية الخراج فصار الجاني يتولى ذلك رغم أنه ويجب على كل من يملك خمسة وعشرين فداناً من الارض ان يكون احد الجباة طوعاً أو

كثيراً . وكثير من الجبابة كانوا يؤثرون ان يخرجوا عما يملكون من الاراضي ويهربوا ويدخلوا في سلك الرعيانة والخورنة او الاستخدام والجنديّة . فأصدر الامبراطرة اوامره بالبحث عن هؤلاء القارين وان يعادوا الى مدنها بالقوة . وقد جاء في احد القوانين المسنونة انهم عبيد الامبراطورية

فكانت الحكومة تحاول ان تبقي محاسن الشيوخ في المدن على هذه الكيفية واذ كانت تخرب بيوتهم يخرجها اصبح عدد الجنّة ابدآ في قلة . وكان مجلس الشيوخ يتألف على عهد الامبراطورية الغربية من مئة عضو . وفي القرن الرابع نشبت فتن في احدى الولايات فأمر احد الامبراطرة ان يأتوه بروؤوس ثلاثة من الجبابة من كل مدينة فكتب اليه الوالي « ليسع حلمك ان يقرر ما الذي يجب ان نعمله في المدينة التي ليس فيها ثلاثة من الجبابة »

المستعمرون — وقع في الامبراطورية الرومانية مثل ما وقع في عامة المجتمعات القديمة مثل اسبارطة ويونان وايطاليا وهوان يضعل الاحرار ويخلفهم العبيد ولم يبق في القرى ما يكفيها من الحراثين . لاجرم ان المدينة الرومانية لم تخرب بل كانت آخذة بالنماء . فقد كان عدد الوطنيين في القرن الاول زهاء مليون نسمة وفي القرن الثالث (٢١٢) صدر أمر الامبراطور بمخ جميع سكان الامبراطورية حق الوطنية فصار الوطنيون الرومانيون يعدون بالملايين (١) وبنمون باضمحلال سائر سكان العالم يد ان الحكم الروماني كان سببا في اضمحلال شعوب المملكة كما اضحل به من قبل اهل ايطاليا وكان يقتضي له كثير من الجنود وكثير من العبيد

وبهذا الحكم يطلع الاغنياء ويصعب على صغار ارباب الاملاك ان يقفوا امام الكبراء فيستخدمون في الجنديّة او يخرجون بيوتهم بأيديهم . ويقتني صاحب الاملاك الواسعة اراضيهم حتى اتخز من لم يبق في بعض البلاد غير املاك واسعة يحرثها العبيد . وهؤلاء السكان من العبيد لا يتجددون فاذا عرض غرض من العواض المألوفة اذ ذاك من مثل وباء وحرب وغارة برابرة وهلك جمهور من الحراثين في احدى الاملاك تبقى الارض بورا

نقلت القرى على التدرج ولا سيما ما كان منها على القوم من الناس ولم يبق سكان الا في المدن بل صار في عدة اتحاد من المملكة فقار حقيقة خلت من السكان والعمران

(١) كان سكان المملكة يدعون كلهم بالرومانيين منذ ذلك العهد ولما دخل البرابرة الى غالبا لم يجدوا فيها غاليين بل رومانيين حتى كان الشعب في الشرق حيث كان السكان يشكون باليونانية يدعى الى عهد الفتح العثماني بالشعب الروماني وما زالت الى اليوم بلاد الاستانة تدعى روم ايلي

فانشأ الامبراطرة يسكنون فيها عصابات من البربر ممن ضربوهم وأسروهم ليحبوا بهم موت تلك القرى . الا ان هؤلاء البرابرة لا يملكون الاراضي بل يستعصرونها فقط مثل الهيلوثيين في اسبارطة ويقضى عليهم ان يبقوا في الارض التي أزلوا فيها لا يفارقونها ولا اولادهم بحال يؤدون الى صاحب الارض مالا مقررا فمن ثم كانوا مستأجرين الى الابد بالقوة . وليس هذا النظام جديدا بل كان في ايطاليا على عهد الامبراطورية الشرقية أناس من الطواريء من الاحرار الفقراء قيدوا انفسهم في خدمة صاحب ملك عظيم لينالوا منه أرضا يزرعونها . وزاد سواد هؤلاء الطواريء زيادة كبرى لما ضموا اليهم الاسرى من البربر

وهذه الطريقة الشديدة لم تكف في احياء امة لان اولئك الخرائين كانوا يفرون او يهلكون وفي القرن الخامس بعد مرور الجيوش العظمى من الخربين (داكيز واتيلا) كان في اراضي المملكة فراغ كبير تعذر على الامبراطرة ان يسدوه . وبقي في غالبا واسبانيا وايطاليا وفي الغرب كله جزء من الاراضي بورا لقلة العاملين فيها واقفرت ولايات النجوم وقد اضحل الشعب الروماني في جميع حوض الطونة من سويسرا الى البلقان منذ القرن السادس فلم يكن في تلك البلاد الا أمم جرمانية او سلافية . حتى ان الفرنك لم يجدوا في البلجيك غير فقر .

البرابرة في الجيش الروماني — هذه الاراضي الخالية تستدعي سكانا جدد فكان البرابرة يحاولون على الدوام ان تخطوها وما دام للحكومة الرومانية بعض جيش لا يصعب عليها ان تردم على اعقابهم . الا ان الامر في التجنيد صار الى الصعوبة كايجاد المال . وألف سكان الامبراطورية حياة السكون ولم يعودوا يهتمون بخدمة الجندية . حتى اضطرت الحكومة ان تطلب جندا من كبار ارباب الاملاك فيأخذ هؤلاء بعض الطواريء الذين يعملون في اراضيهم فكان هؤلاء المساكين المأخوذون بالقوة من وراء محاربتهم جندا غير كفوء للقتال . وغدت الجنود منذ القرن الرابع من الضعف بحيث لا يستطيع حمل الدروع واستعاضت عن الخوذ بالقبعات

واصبح القواد يؤثرون ان يستعملوا انخاريين من البربر لانهم يقاتلون بشدة على الاقل وقد جندت الامبراطورية في خدمتها منذ زمن جنودا من الجرمانيين يتناولون جرايات ويقاتلون بأسلحتهم وكان اكثرهم من الفرسان واخذ امبراطرة الرومان في القرن الرابع يجندون منهم عصابات برمتها ينزلون مع فساخهم واولادهم وخدمتهم في اراض يهبونهم اياها على سبيل الجراية . ويحتفظ هؤلاء المحاربون النازلون في ارض رومانية بلغتهم وعاداتهم

وبإسلاحهم وزعمائهم ويدعون «المخالفين» ويبلغ بالامبراطور انه اخذ يقبل منهم في جيشه شعبياً برمتها مثل الوزيغوت والبورغند وكانوا اجتازوا القوم بالقوة احياناً ثم آثروا ان يكونوا في خدمته على ان يقائلوه . فأصبحت اذ ذالك جيوش رومانية مؤلفة من شعوب بربرية يقودها قائد بربري . ولقد كان الجيش الروماني الذي رد غارة اتيلان سنة ٤٥١ مؤلفاً من الوزيغوت والفرنك والبورغند وصار كثير من القواد الرومان منذ القرن الرابع (سيلفانوس واريوكاست) ومعظمهم في القرن الخامس (مثل ستيكسون ورسيمير وادواكر) من اصل بربري ولم تعد الامبراطورية الرومانية محمية الا بأناس من المحاربين من البرابرة فاحتلها بعد ابناء جنسهم

طبقات الاطباء

من الكتب ما الوظف به المرء أغناء عن مكتبة وكمن مكتبة لا تغني عن كتاب . والكتب كالناس واحد بألف والف لا يساوي واحدا . ومن الكتب التي تعد بألف كتاب «عيون الانباء» في طبقات الاطباء «لؤلفه موفق الدين أبي العباس احمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة المتوفى سنة ٦٦٨ بصرخد من أعمال جبل الدروز في بلاد الشام الفه في دمشق يرسم امين الدولة بن غزال بن أبي سعيد وزير الملك الصالح ابن الملك العادل

صاحب هذه الطبقات من الاطباء العلماء منفع الفكر منفع العبارة منظم الاسلوب حسن الطريقة ذكر في كتابه كما قال نكتاً وعيوناً في مراتب التمييز من الاطباء القدماء والحديثين ومعرفة طبقاتهم على توالي ازماتهم وأوقاتهم وأودعه نبذة من احوالهم وحكاياتهم ونواديرهم ومخاويراتهم وشيئاً من اسماء كتبهم ليستدل بذلك على ما خصهم الله تعالى به من العلم قال فان كثيراً منهم وان قدمت ازمانهم وتفاوتت اوقاتهم فان لهم علينا من النعم فيما صنّفوه والمثلن فيما قد جمّعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة ما هو تفضل المعلم على تلميذه والمحسن الى من احسن اليه . وقد اودع كتابه جماعة من الحكماء والفلاسفة ممن لهم نظر وعناية بصناعة الطب وجملا من احوالهم ونواديرهم واسماء كتبهم وجعل ذكر كل واحد منهم في الموضع الا ليق به على حسب طبقاتهم ومراتبهم وقسمه الى خمسة عشر بابا الباب الاول في كيفية وجود صناعة الطب واول حدوثها . الثاني في طبقات الاطباء الذين ظهرت لهم اجزاء من صناعة الطب وكانوا المبتدئين بها وهم ثلاثة . الثالث في الاطباء اليونانيين الذين هم من نسل اسقليبيوس وهم ستة . الرابع في الاطباء اليونانيين الذين اذاع ابقراط فيهم صناعة الطب وهم تسعة . الخامس في الاطباء الذين كانوا منذ زمان